

سُرَّةُ بَيَانِ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تَأَلَّفَ
الدُّكْتُورُ فَاضِلُ صَاحِ السَّامِرَانِيِّ

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

دار البزك شيراز





رابطہ بدیل
lisanerab.com

مکتبۃ لسان العرب

أ. علاء الدین شوقی

www.lisanarb.com



السُّئَلَةُ بَيَانِيَّةٌ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

● الموضوع: علوم القرآن
العنوان: أسئلة بيانية في القرآن الكريم 2/1
تأليف: الدكتور فاضل السامرائي

الطبعة الثانية

1434 هـ - 2013 م

ISBN 978-614-415-040-5

© حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

ISBN 978-614-415-040-5



9 786144 150405

● الطباعة: مطبعة IPEX - بيروت / التغليف: شركة فؤاد البينو للتغليف - بيروت
● الورق: أبيض / الطباعة: لوانان / التغليف: كرتونه
● القياس: 17x24 / عدد الصفحات: 554 / الوزن: 1380 غ

دمشق - سوريا - ص.ب : 311
حلبوني . جادة ابن سينا . بناء الجبالي - حالة المبهعاه تلفاكس : 2225877 - 2228450
الإحاراة تلفاكس : 2243502 - 2258541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
برج أبي حيدر . خلف دبوس الأصلي . بناء الحديقة - تلفاكس : 817857 01 - جوال : 03 204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

دار ابن كثير
للطباعة والنشر والتوزيع

أسئلة بيانية

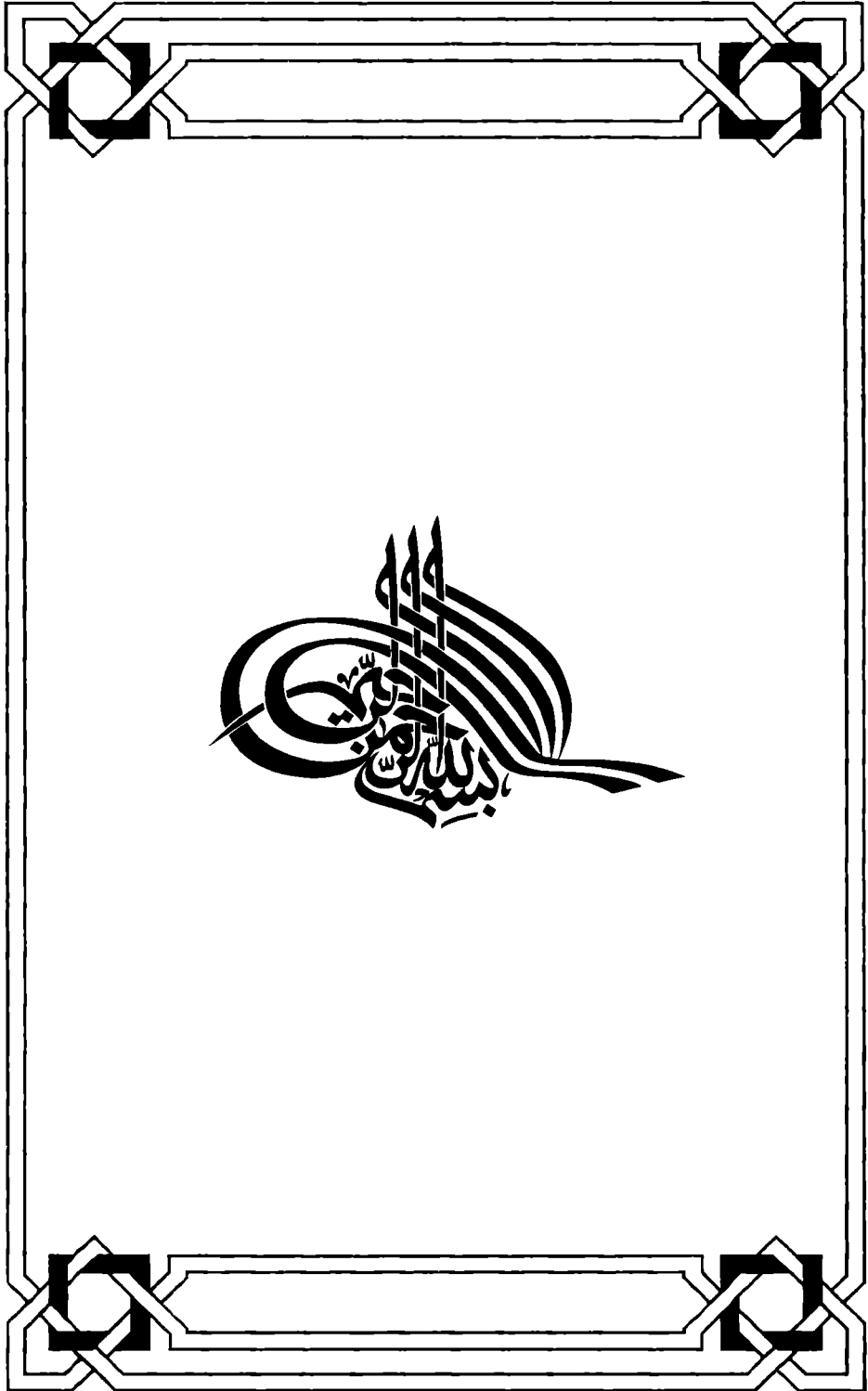
في القرآن الكريم

تأليفُ

الدكتور فاضل صالح السامرائي

الجزء الأول

دار البزكثير





المُقدِّمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على السّراج المنير ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، مصابيح الهدى وأئمة التّقى ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذه أسئلة وردَ إليّ كثيرٌ منها على طريق التلفاز ، بينما كنتُ أتحدّث في برنامج (لمساتٌ بيانيةٌ في نصوص من التّنزيل) في قناة الشّارقة الفضائية في دولة الإمارات العربية المتحدة ، وورد القسم الآخر عن طريق المراسلة .

وقد أجبتُ عن قسم غير قليل منها عبر البرنامج ، وبقي قسم آخر لم يتسنَّ لي الإجابةُ عنه .

وفي هذا الكتاب ، حاولتُ الإجابةَ عن مئتي سؤالٍ مما سبق أن أجبتُ عنه ، أو لم يتسنَّ لي ذلك .

وقد ربّبتُ موضوعات الأسئلة على حسب تسلسلها في المصحف الشّريف في الغالب ، ولم يختلف هذا المنهج إلا نادراً ، وذلك فيما أراه أنه هو الأنسب ، كأن يكون بين الموضوعين ارتباطٌ ما ، وإن كانا

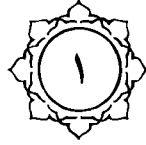
متباعدين في المصحف ، وذلك كالتَّوَالٍ في آية النور من سورة النور ، عن سبب إخبار ربنا عن نفسه بأنه نور السموات والأرض ، ولم يخبر عن نفسه أنه ضياء ، مع أن الضياء أقوى من النور ، والسُّؤال في آية من سورة الأنبياء عن سبب الإخبار عن التَّوَالٍ أنها ضياء وفي مواضع أخرى أنها نور ، فرأيت من المناسب أن أضعها بجانب بعض .

أما ما لم تكن بينهما علاقة من نوع ما ، فرتبته بحسب ما ورد في المصحف ، وهو الأعم الأغلب .

وأرجو من القارئ العزيز أن يعذرني إذا كنت عنده غير مصيب ، وألا يبخل عليّ بدعوة يسألُ الله فيها أن يعطيني أجر أحد المجتهدين ، وأن يبصّرني بالصَّواب .

أسألُ الله سبحانه أن يُلهمنا الرُّشدَ وَيَمُنَّ علينا بالسَّدَادِ في القول ، والعمل إنه أكرم مسؤولٍ ، وأعظم مسؤولٍ .

فاضل السَّامِرَائِي



قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢] .

وقال في سورة لقمان : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان : ٢-٣] .

سؤال

لماذا زاد الرَّحمة على الهدى في آية لقمان ؟

الجواب

إن آية البقرة في المتقين ، والمتقي هو الذي يحفظ نفسه .

وأما آية لقمان ففي المحسنين ، والمحسن هو الذي يُحسِن إلى
نفسه ، وإلى غيره ، قال تعالى : ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾
[القصص : ٧٧] .

وقال : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء : ٣٦] .

وقال : ﴿إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء : ٧] .

جاء في (المفردات) للراغب : « الإحسان على وجهين :

أحدهما : الإنعام على الغير .

يقال : أحسن إلى فلان .

والثاني : إحسانٌ في فعله ، وذلك إذا علم علماً حسناً ، أو عمل عملاً حسناً^(١) .

فلما ذكر في آية لقمان أنهم محسنون ، زاد لهم الرحمة على الهدى ، وذلك أنهم زادوا في الوصف على المتقين بأن أحسنوا إلى غيرهم ، وإلى أنفسهم ، فزاد الله لهم في الجزاء .

ثم إن الإحسان إلى الآخرين إنما هو من الرحمة ، فزاد الله لهم الرحمة لما رحموا الآخرين .

ولم تقتصر هذه الزيادة لهم في الدنيا ، بل زاد الله لهم الجزاء في الآخرة أيضاً ، قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] .

فكما زادوا في الدنيا من الخير ، زاد الله لهم فيه في الدنيا والآخرة ، والجزاء من جنس العمل .

* * *

(١) المفردات (حسن) .



قال في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ النَّارِ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

[البقرة : ٢٣ - ٢٤] .

وقال في سورة يونس : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ ۚ وَلَمَّا يَا تَهُم تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

[يونس : ٣٨ - ٣٩] .

وقال في سورة هود : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ ۚ مُفْتَرِيَاتٍ ۚ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

[هود : ١٣ - ١٤] .

سؤال

١ - لماذا قال في البقرة : ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ ﴿بِذِكْرِ﴾ ﴿مِّن﴾

مع المِثْل ولم يذكرها في يونس ، ولا في هود ؟

٢ - لماذا قال في البقرة : ﴿ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، وقال في يونس وهود : ﴿ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ؟

٣ - لماذا شدد التحذير في البقرة ، فقال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتَقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في يونس ، ولا في هود ؟

٤ - ولماذا قطع بعدم الفعل بعد الشرط في البقرة ، فقال : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ ؟

الجواب

١ - إن معنى : (اتني بشيء من مثله) يختلف عن قولك : (اتني بشيء مثله) ، فإن قولك : (اتني بشيء من مثله) يعني افتراض أن له مثلاً ، فتقول : اتني بشيء من هذا المثل .

يقال : إن لهذا الشيء أمثالاً .

فتقول : اتني بشيء من مثله ؛ أي من هذه الأمثال .

أما قولك : (اتني بشيء مثله) فإنك لا تفترض أن له مثلاً ، فقد يكون أن له مثلاً ، أو لا يكون ، فاستحدث أنت مثله ، كأن تقول لصاحبك : اتني بشيء مثل هذا ؛ أي بشيء مماثل له ، سواء كان مستحدثاً أم موجوداً .

وبعد هذه المقدمة في التفريق بين معنيي (من مثله) و (مثله)
نقول :

٢ - قوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أعمُّ من قوله :
﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ ﴾ في يونس وهود ؛ لأن مظنة الافتراء واحد من أمور
الزَّيْبَةِ . فالريبة قد تكون من مظنة الافتراء ، أو غيره ، فإنهم قالوا :
ساحر ، أو مجنون ، أو يعلمه بشر ، وما إلى ذلك .

٣ - قوله في البقرة : ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يحتمل أن يكون من مثل
القرآن ، أو من مثل الرسول ، أي من شخص أميٍّ لم يتعلم .
وهو أعم مما في الآيتين في يونس وهود ، فإنهما نصَّ في أن
المطلوب أن يأتوا بمثل القرآن .

فناسب العمومُ العمومَ ، وإن كان المعنى الأول هو الأظهر .

٤ - حذف مفعولي ﴿ تَفَعَّلُوا ﴾ و ﴿ وَلَنْ تَفَعَّلُوا ﴾ مجانسةً للإطلاق ،
وإن كان المقصود معلوماً .

٥ - قال في يونس وهود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ ﴾ فقال : ﴿ فَاتُّوا
بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ أو : ﴿ بَعْشَرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ ﴾ ؛ أي افتروا أنتم كما
افتري .

٦ - لا يحسن بعد قوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أن
يقال : (فأتوا بسورة من مثله مفتراة) من جهتين :

الأولى : أنهم لم يقولوا : (افتراه) كما في آيتي يونس وهود .

والجهة الأخرى : أنه لا يحسن بعد قوله : ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ أن يقول :
(مفتراة) لأنه افترض أن له مثلاً ، فهو إذن ليس مفترئ .

٧ - وعلى هذا لا يحسن أن يقال : (أم يقولون افتراه فأتوا بسورة من مثله) ؛ لأنه افترض أن له مثلاً ، فهو إذن ليس بمفترئ .

٨ - لا يحسن بعد قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ ﴾ في يونس وهود أن
يقال : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ .

فإنهم قالوا : (افتراه) وإذن ليس له مثلٌ . وقوله : (من مثله)
يقتضي أن له مثلاً ، وإنما ينبغي أن يقال : (فأتوا بسورة مثله) ، أي :
افتروا أنتم أيضاً .

٩ - لم يقل في البقرة : (وادعوا من استطعتم من دون الله) لأنه
افترض أن له مثلاً ، ومعنى ذلك أن هناك من استطاع أن يفعل ، إذن
فليأتوا بشيء مما فعله المستطيع . فإن الغرض من دعوة من استطاعوا أن
يفعلوا مثله ، وهو قد افترض أن له مثلاً ، فدعاهم إلى أن يأتوا بشيء مما
فعله هؤلاء .

١٠ - قال : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : ادعوا من يشهد
لكم أن هذا الكلام مثل هذا .

وعلى هذا فالآية تقتضي دعاء من استطاعوا ، ودعاء الشهداء ،
فالأولون دعاهم بقوله : ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ ؛ لأنه افترض أن هناك من استطاع
أن يأتي بمثله .

والشُّهداء دعاهم للشهادة .

وهذا أوسع وأعمُّ فناسب العمومُ العمومَ .

١١ - ذكر بعد آية البقرة أن يتقوا النَّارَ التي وقودها الناس والحجارة ؛ لأن الذي لا يؤمن بعد إقامة الحجّة عليه ، ولم يستعمل عقله ، إنما هو بمنزلة الحجارة فقرن بينهما .

١٢ - لما قال في أوّل سورة البقرة : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لِارِيْبٍ فِيهِ ﴾
ناسب أن يقول : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ .

كما ناسب أن يقطع بعدم الاستطاعة على الفعل ، بقوله : ﴿ وَلَنْ نَفْعَلُوا ﴾ ؛ لأنه ذكر ابتداءً أنه لا ريب فيه .

* * *



قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة : ٤٩] .

وقال في سورة الأعراف [١٤١] : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ .

سؤال

لماذا قال في آية البقرة : ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ وقال في الأعراف :

﴿يُقْتَلُونَ﴾ ؟

الجواب

إنه قال في الأعراف في قصة موسى ، قبل هذه الآية : ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُؤُا مَوْسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْهَتَكُ قَالَ سَنَقْتُلُنَّ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [١٢٧] ، فناسب قول فرعون فعله ، فقد قال : ﴿سَنَقْتُلُنَّ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فقال : ﴿يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ وهو المناسب ، فقد فعل ما قاله وهدد به .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن القتل أعم من الذبح ، وأن القصة في الأعراف مبنية على العموم والتفصيل في موقف فرعون من بني إسرائيل ، فإنه لم يرد في سورة البقرة ذكر فرعون مع بني إسرائيل ، ولا فتنته لهم إلا هذه الآية .

في حين أن القصة في الأعراف فصلت في ذكر الحوادث قبل موسى وبعده ، وذكرت فتنة فرعون لبني إسرائيل ، وذكرت مجيء موسى إلى فرعون وتبليغه بالدعوة ، وذكرت موقف فرعون من السحرة وتهديد فرعون لبني إسرائيل بالقتل والإذلال والإيذاء ؛ حتى قالوا لموسى : ﴿ أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [١٢٩] .

وذكر الآيات التي حلت بفرعون وقومه : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ [١٣٠] .

وتستمر القصة في ذكر التفاصيل :

فناسب العموم في الأعراف العموم في اللفظ ، وهو التقتيل . ثم إنه لم يرد في البقرة ذكر لهارون في هذه القصة ، وأما في الأعراف ، فقد ورد ذكره في أكثر من موقف ، منها قول السحرة : ﴿ قَالُوا يَا أَمَنَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ [١٢١ - ١٢٢] .

وورد استخلافه في قومه ، فقال : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِح ﴾ [١٤٢] .

فناسب ذلك أيضاً ذكر التقتيل ، فإن ذكر موسى وهارون أعم من ذكر موسى وحده ، فناسب العموم العموم .



لماذا قال في البقرة: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] .

وقال في الأعراف: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمَ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] ؟

الجواب

إن السِّياق في الأعراف في تفصيل ما حصل في هذه المواعِدَة ، فقد قال : ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمَ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٣٦) ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِن نُنظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِمُوسَىٰ أَنَّ الْجَبَلَ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٧) قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٣٨) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [١٤٢ - ١٤٥] .

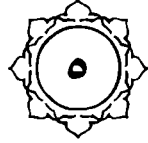
في حين أن السياق في البقرة كان مجملاً ، فإنه لم يتعدَّ آيةً واحدةً أو جزءاً من آيةٍ ، وهي قوله : ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [٥١] .

وبعدها قوله : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [٥٢] وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [٥٣] وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا مَا يَلْبَسُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَهُمْ مِنْ شَرِّهِمْ غَافِلِينَ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ مِيثَاقَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ مِيثَاقَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ مِيثَاقَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ مِيثَاقَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ مِيثَاقَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿٦٠﴾

ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ . . . ﴿ بل إن ما يخصُّ المواعدة هو قوله : ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ وبعده يتعلق باتخاذ العجل كما هو ظاهر .

فناسب التفصيلُ التفصيلَ والإجمالُ الإجمالَ .

* * *



قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ
فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَّرُونَ ﴾ [البقرة : ٨٦] .

وقال فيها أيضاً : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾
[البقرة : ١٦١ - ١٦٢] .

وقال في آل عمران : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾
[آل عمران : ٨٧ - ٨٨] .

سؤال

لماذا قال في الآية السادسة والثمانين : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَّرُونَ ﴾ ، وقال
في الآيتين الأخريين : ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ؟

الجواب

إن الآية الأولى إنما هي في سياق القتل والحرب والأسر ،
والأسارى إنما هم من أوزار الحرب ، ومن في هذه الحال إنما يتبغي

النصر ، فنفى ذلك عنهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشَاهِدُونَ ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذَرُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْا مُنُونٌ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿ [٨٤ - ٨٦] فناسب ذلك ذكر النصر .

وأما الآيتان الأخريان ، فقد ذكرتا أن عليهن لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وذكر بعد ذلك أنهم خالدون فيها ، لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون .

واللّٰعنة هي الطرد والإبعاد من رحمة الله ، والمطروء لا يُنظر إليه ؛ لأنه يُبعد .

والنظرُ قد يكون معناه التأخيرَ والإمهالَ ، وقد يكون معناه نظر الرحمة . وكلاهما منفي .

أما الأول فلأنه مطروءٌ فكيف يؤخَّرُ ؟ وكذلك بالنسبة إلى المعنى الآخر ، فناسب كل تعبير مكانه .



قال تعالى في سورة البقرة: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

وقال في سورة المائدة: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

وقال في سورة الحج: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٩].

سؤال

لماذا قدّم الخزي على الدنيا في آية المائدة، فقال: ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ وأخره عنها في آيتي البقرة والحج، فقال: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؟ .

الجواب

إن الخزي المذكور في آية المائدة أظهر للعيان مما في آيتي البقرة والحج، وهو ثابت لا يزول، بخلاف ما في آيتي الحج والبقرة، فإنه غير ظاهر ذلك الظهور ولا ثابت ذلك الثبات، فقد قال تعالى في آية

المائدة : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، في حين قال في البقرة : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

فقد ذكر عن هؤلاء أنهم لا يدخلونها إلا خائفين ؛ أي لا يدخلون المساجد إلا خائفين ، فالخوف مقارنٌ للدخول ، فإذا انتفى الدخول انتفى الخوف ، ثم إن الخوف أمرٌ قلبيٌّ غير ظاهرٍ للعيان ، فالخزي المذكور في آية المائدة أظهرٌ وأشدُّ .

وقال في الحج : ﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ثانياً عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿ [٨-٩] ولم يذكر الخزي الذي سيلحقهم في الدنيا .

فالتقتيل ، والتصليب ، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف ، والتقي من الأرض ، أظهر خزيًا وأشد عقوبةً في الدنيا مما ذكره في الآيتين الأخيرين . فناسب تقديمه في آية المائدة .



قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبْعَ
مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

سؤال

لماذا قال : ﴿حَتَّىٰ تَبْعَ مِلَّتَهُمْ﴾ بإفراد الملة ولم يقل : حتى تتبع
مليتهما ؟

ولماذا جاء بـ : (لا) في قوله : ﴿وَلَا النَّصَارَىٰ﴾ ولم يقل : (ولن
تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ) ؟

الجواب

١ - الجواب عن السؤال الأول أنه لو قال : (حتى تتبع مليتهما)
لكان المعنى أن اليهود لا يرضون حتى تتبع الملتين ، وأن النَّصَارَى
لا يرضون حتى تتبع الملتين ، وهذا غير مراد ولا يصح .

٢ - أما الجواب عن السؤال الثاني ، فإنه لو قال ذلك من دون
(لا) أي : (ولن ترضىٰ عنك اليهود والنصارى حتى تتبع مليتهما) كان
المعنى أنه لن يرضىٰ عنك الجميع ؛ حتى تتبع الملتين .



ولو قال : (ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم)
احتمل ذلك معنيين :

الأول : أن الجميع لا يرضون حتى تتبع ملتهم .

بمعنى أنك إذا اتبعت ملة اليهود ، رضيت عنك اليهود والنصارى ،
وإذا اتبعت ملة النصارى ، رضيت عنك اليهود والنصارى ، وهذا
المعنى لا يصح وهو غير مراد .

والآخر : هو احتمال ما نصت عليه الآية أي : لن ترضى عنك
اليهود حتى تتبع ملتهم ، ولن ترضى عنك النصارى حتى تتبع ملتهم .
وما جاء في التعبير القرآني نصاً على المعنى المراد من دون احتمال
آخر .





قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

وقال في سورة الرعد: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧] .

سؤال

١ - لقد قال تعالى في آية البقرة: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ، وقال في آية الرعد: ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ .

٢ - قال في آية البقرة: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ .

وقال في آية الرعد: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ .

فما سبب هذا الاختلاف؟

الجواب

١ - نقول أولاً: إن الفرق بين (الَّذِي) و(مَا) مع أن كليهما اسمٌ

موصولٌ ، أن (الذي) اسمٌ موصولٌ مختصٌّ فهو مختصٌّ بالمفردِ المذكّرِ .

وأن (ما) اسمٌ موصولٌ مشتركٌ يشترك فيه المذكّرُ والمؤنثُ المفردِ والمثنى والجمع .

وأنه حدد الأهواء في البقرة وعينها بقوله : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ وَبِعْتَهُمْ ﴾ .

ولم يحددها في الرعد ، بل أطلقها ، غير أنه قال قبل هذه الآية : ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ ﴾ ولم يذكر هذا البعض .

فجاء مع ذكرِ الأهواءِ المخصصةِ بالاسمِ الموصولِ المختصِّ وهو (الذي) .

وجاء مع ذكرِ الأهواءِ العامةِ بالاسمِ الموصولِ المشتركِ وهو (ما) .

ثم إن العلم المذكور في كل من الآيتين مرتبط بالسياق الذي ورد فيه ، فالمقصود بالعلم في قوله : ﴿ وَلَيْنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ في آية البقرة العلم بدين الإسلام ، وهو هدى الله وهو ما يقابل ملة اليهود والنصارى وهو معلومٌ .

وأما العلم المذكور في آية الرعد ، فلم يعين ولم يحدّد وهو ما يقابل ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ ﴾ فلم يذكر الأحزاب ، ولم يذكر البعض الذي تنكره .

فجاء في العلم المحدّد المعلوم بالاسم الموصول المختص وهو

(الذي) ، وجاء في غير المعين بالاسم الموصول المشترك ، وهو (ما)
فناسب كل تعبيرٍ موضعه .

٢ - وأما من ناحية الفاصلة في كل من الآيتين ، فإنه قال في
البقرة : ﴿ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

وقال في الرعد : ﴿ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاكِ ﴾ ، والواقي أعمُّ من
النَّصِير ، فالواقي هو الحافظ ، و(وقي) معناه : (حفظ) .

والواقي يكون عاقلاً أو غيره ، فقد يكون من الجمادات أو غيرها ،
فالسقف واقي ، والملابس واقية ، قال تعالى : ﴿ سَرَبِيلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ
وَسَرَبِيلٌ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ ﴾ [النحل : ٨١] .

وأما النصير فلا يكون إلا عاقلاً قادراً ، فجعل العامُّ وهو (الواقي)
مع العام وهو عموم الأهواء ، والاسم الموصول المشترك (ما) ،
وجعل الخاصَّ مع الأهواء المحددة ، والاسم الموصول المختص وهو
(الذي) .

٣ - إن النصيرَ ينصرُ صاحبه على الخصمِ والعدو ويمكنه منه ،
وأما الواقي فإنه يحفظه منه وقد لا يتمكن من نصره .

فوجودُ النصير أتم في النعمة من وجودِ الواقي ؛ لأنه ينصره ، وإذا
نصره فقد وقاه ، وإذا عدم النصير فإنه لا يزال مطلوباً لخصمه ، أو
مهضوماً حقه ، حتى مع وجود ما يحفظه أو من يحفظه ، فإن الحافظ قد
يخفي من يحفظه في مكان لا يعلمه خصمه أو لا يصل إليه .

فجعل نفي النَّصِير - وهو النعمة الأتم - مع الوزرِ الأعظم ، وهو

ترك ملة الإسلام إلى ملة اليهود أو النصارى ، وجعل نفي الواقي الذي هو دون ذلك ، مع ما هو أقل ، وهو إنكار بعض الأحزاب بعض ما أنزل إليه .

وقد تقول : لقد قلت في النقطة السابقة إن الواقي أعم من النصير ، وإن مدلول الكلام ههنا ، أن النصير أعم ؛ لأنه ينصر صاحبه ، وإذا نصره فقد وقاه ، فهو واقٍ ونصيرٌ ؟

والحق أنه لا تناقض بين القولين ، فإن النصير لا بد أن يكون عاقلاً قادراً ، والمنصور عليه لا بد أن يكون عاقلاً قادراً ، فهو مختصٌ بذوي العلم والقدرة ؛ ناصراً ومنصوراً ومنصوراً عليه ، فلا تقول : هو نصيره من العقرب ، أو من الحر أو من البرد ، ونحو ذلك .

وأما الواقي فهو عامٌ فقد يكون عاقلاً أو غيره ، وكذلك ما تقيه منه ، فقد يكون عاقلاً أو غيره .

وما تقيه قد يكون عاقلاً أو غيره ، فإنك قد تقي بضاعة من التلّف ، وملابس من الوسخ ، وماء من القدر ونحو ذلك ، فلا الواقي ، ولا ما تقيه ، ولا ما تقيه منه ، يُشترط أن يكون عاقلاً بخلاف النصير ، فإن النصرة مختصة بالعقلاء ، وليست كذلك الوقاية ، فاتضح ما قلناه .

٤ - ثم إن سياق كل آية يقتضي فاصلتها التي وردت فيها من جهة أخرى ، فقد قال في آية البقرة : ﴿ وَلَنْ رَضِيَ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ فإذا اتبع ملتهم كان منهم ، وأهل الملة ينصرون أتباعهم على غيرهم من أصحاب الملل الأخرى ، فنفي النصير عنه .

وأما آية الرِّعْدِ ، فلم يذكر فيها ذلك ، وإنما قال : ﴿ وَمِنَ الْأَخْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ فإذا اتبع أهواءهم في ذلك البعض ، فإنه قد لا يقتضي النصرة ومحاربة أعدائه ؛ من أجل ذلك البعض الذي قد يكون هيناً ، ولكن ربما يحفظونه إذا وقع في شدة أو أمرٍ ، مما هو دون الدخول في مجابهة عدوه ، فنفى الواقي ، فناسب كل تعبيرٍ موضعه كما هو ظاهر .

٥ - هذا ومن الطريف أن نذكر أن كلمة (نصير) وردت في البقرة مرتين : مرة في هذه الآية ومرة في الآية السابعة بعد المئة ، ولم ترد في سورة الرعد ، وأن كلمة (واقٍ) وردت في سورة الرعد مرتين ، مرة في هذه الآية ، ومرة في الآية الرابعة والثلاثين ، ولم ترد في البقرة ، فناسب ذلك من جهة أخرى .

٦ - هذا علاوة على تناسبِ فواصلِ الآياتِ في كلِّ سورةٍ ، فأية البقرة تناسب فاصلتها فواصل الآيات التي وردت في سياقها ، من مثل ﴿ الْجَحِيمِ ﴾ ، و ﴿ الْخَسِرُونَ ﴾ ، و ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وفاصلة آية الرعد تناسب فواصل الآيات التي وردت في سياقها من مثل : ﴿ مَعَابٍ ﴾ و : ﴿ الْكِتَابِ ﴾ و : ﴿ الْحِسَابِ ﴾ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعه الذي ورد فيه من كل جهةٍ ، والله أعلم .



قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ۗ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وقال في سورة الأنعام: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِآءٌ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِنُهُمْ آفَئِدَةً ﴾ [الأنعام : ٨٩ - ٩٠] .

وقال في سورة الزمر: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ هُمُ الْبَشَرُ ۗ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأَلْبَابُ ﴾ [الزمر : ١٧ - ١٨] .

سؤال

لماذا قال في آية البقرة: ﴿ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ ، فحذف العائد على (الذين) من الفعل (هدى) .

وكذلك في آية الأنعام ، فقد قال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ ، ولم يقل : (هداهم الله) .

في حين قال في آية الزمرِ : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ فذكر العائد وهو الضمير (هم) المتصل بالفعل (هدى) ؟

الجوابُ

إن هذا النوعُ من الحذفِ إنما هو من الحذفِ الكثير في اللغة ، والفرق بين الذكر والحذف ، أن الذكر يفيد التوكيد كما هو معلوم ، ومعنى ذلك أن قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أكد من قوله : ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ ؛ لأنه صرح بذكر الضمير .

أما الفرق بين آية البقرة وآية الزمرِ ، فإن آية الزمر تقتضي التوكيد أكثر من آية البقرة ، وذلك أن آية البقرة إنما هي في تحويلِ القبلة .

وأما آية الزمرِ فإنها فيمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وهؤلاء على درجة كبيرة من الهدى ، فإنهم لا يكتفون باتباعِ الحسنِ ، وإنما يتبعون الأحسن ، ثم إنه جاء معهم بالفاء ، فقال : ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ولم يأت بـ : (ثم) ، والفاء تدل على الترتيبِ والتعقيبِ ، فإنهم بمجرد سماع القول يتبعون الأحسن .

وقال : (يتَّبِعُونَ) مضارع (اتَّبِع) بتضعيف التاء ، وهو على وزن (افتعل) الدالّ على المبالغة في الاتباعِ ، ولم يقل (يتَّبِعُونَ) بالتخفيف ، وهذه مرتبةٌ عظيمةٌ أعلى من مجردِ اتباعِ القبلة ؛ لأن اتباعِ القبلة إنما هو من استماعِ القول واتباعه ، فهو واحد من الأمور المطلوبة .

فهداية المذكورين في الزمرِ أعلى وأكد ؛ لأنها تشمل ما ذكره في آية البقرة وغيره مما يريد به الله .

ولذا كان التوكيدُ في الزمرِ هو المناسب .

وأما آيةُ الأنعامِ فهي في جمعٍ من رسلِ الله وأنبيائه وفيهم أولو العزم ، ولا شك أن هؤلاء أعلى من المذكورين في آية الزمر .

قد تقول : ولماذا إذن لم يذكر الضمير مع فعل الهداية ، مع أنهم أولى بالتوكيد من غيرهم ؟

والجواب : إن ربنا ذكر كل أحوال الهداية مع هؤلاء الذين ذكرهم في سياق آية الأنعام ، واستعمل كل أنواع التعدية لفعل الهداية .

فقد عدّى الفعل إلى المفعول مباشرةً بأسمائهم الظاهرة ، فقال : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ . . . ﴾ إلخ .

فعطف هؤلاء الأنبياء والرسل على نوح الذي هو مفعول ﴿ هَدَيْنَا ﴾ أي : ومن ذريته هدينا سليمان وأيوب ويوسف . . . إلخ ، ثم عدّى الفعل إلى ضميرهم أيضاً ، فقال : ﴿ وَأَجْبَبَيْنَهُمْ وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [٨٧] ، فقال : ﴿ وَهَدَيْنَهُمْ ﴾ فعدّى الفعل إلى ضميرهم ، كما قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَيْنَاهُمْ اللَّهُ ﴾ وزاد على ذلك الاجتباء .

ولم يكتفِ بذلك ، بل قال أيضاً : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ فحذف مفعول (هدى) وهو الضمير العائد على الرسل ، فجعل الكلام على

صورة المطلق فأطلق المعنى ، إذ يحتمل هذا التعبير معنيين :

الأول : أولئك الذين هداهم الله ، وهو الأظهر .

والثاني : أولئك الذين هدى الله بهم .

فصار المعنى : أولئك الذين هداهم الله وهدى بهم ، ولو ذكر الضمير للدلالة على معنى واحد ، فاتسع المعنى بالحذف .

ولا شك أن هذا المعنى أوسع من ذكر الضمير وأمدح لهم .

فزاد على ما ذكره في الزمر بالتعدية إلى المفعول المباشر ، وهو الاسم الظاهر ، وبالحذف للدلالة على الإطلاق واتساع المعنى .

ثم إنه ذكر من الهداية ما لم يذكره في الآيتين .

فقد ذكر الهداية العامة ، وهو قوله : ﴿ وَتَوْحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ ... ﴾ إِنْخ ، ولم يخص الهداية بأمر معين .

ثم ذكر أنه هداهم إلى صراطٍ مستقيم ، فقال : ﴿ وَأَجْنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وهذه هداية أخرى .

ثم أفاد بالحذف أنه هداهم ، وهدى بهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أنه أسند فعل الهداية مع رسل الله مرة إلى ضمير التعظيم ، فقال : ﴿ وَتَوْحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ... ﴾ إِنْخ ، وقال : ﴿ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وأسنده مرةً أخرى إلى اسمه الجليل وهو اسمه العَلَم ، فقال :
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ .

في حين أسنده في الآيتين الأخيرين إلى اسمه العلم ، فزاد الإسناد مع الرسلِ على ما في الآيتين الأخيرين .

هذا علاوةً على ما ذكره من التعظيم لأنبيائه ، ما لم يذكره مع الآخرين من نحو قوله : ﴿ وَكَلَّأَفْضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [٨٦] .

وقوله : ﴿ وَأَجْبَبْتُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فزاد الاجتباء على الهداية .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ [٨٩] .

وقوله : ﴿ فِيهِدَنَّهُمْ أَقْدَامَهُ ﴾ [٩٠] .

فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعه .

وقد تقول : ألا يحتمل الحذف في آية البقرة ، وهي قوله : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ ما ذكرته في قوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ فيكون المعنى : إلا على الذين هداهم الله وهدى بهم ، فيتسع المعنى ، فيكون من ذكرهم في البقرة أعلى ممن ذكرهم في الزمر ، نظير ما ذكرته في آية الأنعام ؟

والجواب : إن السِّياق يَأْبَى ذلك ، فإن هذه الآية في تحويل القبلة إلى الكعبة ، بعد أن كانت إلى بيت المقدس ، ويكفي في ذلك أن يتجه المسلم إلى الكعبة في صلاته ، وأن يهديه الله للرضا بذلك ، سواء كان

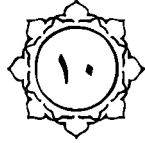
يهدي الآخرين أم لا ، وسواء كان عالماً أم لا .

فمن رضي بذلك واتجه إلى القبلة ، شملته الآية أياً كان ، فلا يصحُّ تقدير ما ذكرت .

وقد تقول : وَلِمَ لَمْ يَحْذَفِ الضَّمِيرُ فِي آيَةِ الزَّمْرِ ، فيقول : ﴿ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ ليشمل الذين هداهم الله وهدى بهم ، فيكون أمدح لهؤلاء ، كما فعل في آية الأنعام ؟

والجوابُ : إن ذكر الضمير ههنا من رحمة الله بنا ، ولو حذفه لكانت البشرى لا تنال إلا من هداه الله وهدى به ، فيكون ممن جمع بين الأمرين ، ولا تنال من هداه الله ولم يهد به ، فذكر الضمير أفاد نصاً أن البشرى تنال من هداه الله ، وأن ذلك كافٍ لأن تناله بشرى ربنا .

وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، والحمد لله رب العالمين .



قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْتَدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٥٩ - ١٦٠] .

وقال فيهم أيضاً: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٦١ - ١٦٢] .

فقال في الآية الأولى: ﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ بصيغة الفعل .

وقال في الآية الثانية: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ بالصيغة الاسمية ، فلمَ ذلك ؟

والجواب

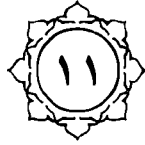
إن الآية الأولى قيلت فيمن كان لا يزال في الحياة الدنيا ، فجاء بالفعل ، (يكتمون) مضارعاً ، وجاء بفعل اللعنة مضارعاً أيضاً ، فما

داموا يكتمون ما أنزل الله تصيهم اللعنة ، إلا الذين تابوا وأصلحوا
ويبينوا ، فأولئك يتوب الله عليهم .

وهذا هو المناسب لفعلهم ، فاللعنة تستمر مادام الكتمان
مستمراً .

وأما الآية الثانية فنزلت في الذين ماتوا على الكفر ، وقد انقطعت
أعمالهم وثبتوا على حالة واحدة ، لا يرجى لهم تبديل ولا تغيير ، فجاء
باللعنة بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبوت ، فناسب كل تعبير مكانه
الذي ورد فيه .

* * *



وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

وقال في سورة النحل : ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل : ١١٤] .

سؤال

لماذا قال في آية البقرة : ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ فأمر بالشكر لله ، وقال في آية النحل : ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ فأمر بشكر النعمة ؟

الجواب

إن السياق الذي وردت فيه آية البقرة ، إنما هو في الكلام على الله ، والسياق الذي جاءت فيه آية النحل في الكلام على النعم .

فقد قال تعالى في سياق آية البقرة : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [١٦٥] .

وقال قبل الآية : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا

دُعَاءَ وَنِدَاءً صَمُّكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَمْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ .

فالكلام كما ترى على الله ، وعلى ما يدعو الكفار من الآلهة ،
فناسب الأمر بشكر الله .

وأما آية النحل فهي في سياق النعم ، فقد قال قبل الآية : ﴿ وَضَرَبَ
اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ ﴾ [١١٢] .

فذكر القرية التي كفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع
والخوف ، فناسب الأمر بشكر النعمة ؛ لئلا يصيبهم ما أصاب من
قبلهم .

هذا إضافة إلى أن كلمة (النعمة) وردت في سورة النحل أكثر مما
وردت في سورة البقرة ، فقد وردت في سورة البقرة ست مرات ،
ووردت في النحل تسع مرات ، فناسب كلُّ تعبير مكانه من جهة أخرى .



قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

سؤال

- ١ - لماذا قال : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ ولم يقل : (وعلى الوالد) ؟
- ٢ - ولماذا قال : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ ﴾ بالجمع ، وقال : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ بالإفراد ؟
- ٣ - ولماذا قال : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ ﴾ ولم يقل : (وعلى الواليدات أن يرضعن) كما قال في الوالد ؟

الجواب

- ١ - بالنسبة إلى السؤال الأول فإنه قال : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ دون الوالد « للدلالة على أن الأولاد للآباء لا للأمهات ، ولهذا يُتسبون إليهم دونهن كأنهن إنما ولدن لهم فقط »^(١) .
- ٢ - وأما بالنسبة إلى السؤال الثاني ، فإنه عبر بـ : (الْوَالِدَاتُ)

(١) فتح القدير (١ / ٢٤٥) .

على صيغة الجمع دون المولود له ؛ للكثرة النسبية ، فإن الوالدات أكثر من الآباء ؛ لأن الأب قد تكون له أكثر من زوجة ، وكلهن يلدن والوالد واحد .

٣ - وأما بالنسبة إلى السؤال الثالث ، فإنه قال : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ ﴾ ولم يقل : (وعلى الوالدات أن يرضعن) لأن الزوج مكلف بالرزق والكسوة للزوجات ، أما الزوجة فلا يجب عليها أن ترضع أولادها ، وهي غير مكلفة بذلك ، بل لها أن تمتنع عن إرضاع ولدها ، فيبحث له والده عن مُرضِعة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَّ فَسَاطِرُكُمْ لَهُ ﴾ أُخْرَى [الطلاق : ٦] .

ولهذا لم يقل : (وعلى الوالدات أن يرضعن) كما لم يقل : (والوالدات ليرضعن) بلام الأمر ، وإنما قال : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ ﴾ .

* * *



قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجًا لَا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨ - ٢٣٩] .

سؤال

لماذا وسط ربُّنا هذه الآية بين أحداثِ الطلاقِ والوفاءِ ، فإن قبلها :
 ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٧﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ [٢٣٦ - ٢٣٧] .

وبعدها : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ... ﴾ [٢٤٠] ؟

الجواب

١ - إن المشكلاتِ بين الزوجين قد تؤدي إلى أن يحيف أحدهما على الآخر ، وينتصر لنفسه ، فيظلم الآخر .

وإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، كما قال ربنا^(١) ، فأمرهم بذلك ؛ ليرتدعوا ، ولئلا ينبغي بعضهم على بعض .

٢ - ثم إنه أمرهم بالمحافظة على الصلاة ؛ لئلا تشغلهم المشكلات العائلية عنها ، فيتركوها أو يتهاونوا في أدائها .

وقد أمرهم بالمحافظة عليها في الوقت الذي هو أشد من ذلك ، وذلك عند الخوف ، فقال : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ ، فكيف فيما هو دون ذلك ؟

وهذا يدل على عظم هذه الفريضة ، وأنه ينبغي ألا يشغلهم عنها شاغل مهما عظم .

* * *

(١) العنكبوت الآية (٤٥) .



قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

سؤال

لماذا قال : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ ﴾ ولم يقل : (ومن لم يشربه) ، مع أن الكلام على الماء ؟

الجواب

يقال : (طعم) إذا أكل أو ذاق ، والطعم الذوق ، وهو يكون في الطعام والشراب .

يقال : طعمه مر أو حلو أو غير ذلك ، ويكون ذلك في كل شيء مما يؤكل أو يشرب^(١) .

ثم إن « الماء قد يُطعم إذا كان مع شيء يمضغ .

(١) انظر : لسان العرب (طعم) .

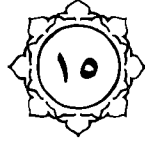


ولو قال : (ومن لم يشربه) لكان يقتضي أن يجوز تناوله إذا كان في طعام .

فلما قال : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمَهُ ﴾ تبين أنه لا يجوز تناوله على كل حال إلا قدر المستثنى وهو الغرفة باليد ^(١) .

* * *

(١) المفردات (طعم) .



قال تعالى في آل عمران على لسان زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حين بشرته الملائكة ببيحيى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ٤٠] .

وقال على لسان مريم ، حين بشرتها الملائكة بالمسيح : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٧] .

سؤال

١ - لماذا قال زكريا : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ ﴾ .

وقالت مريم : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ .

فذكر زكريا الغلام ، وذكرت مريم الولد ؟

٢ - لماذا قال الله مخاطباً زكريا : ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

وقال مخاطباً مريم : ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

فاستعمل (الفعل) مع زكريا ، و (الخلق) مع مريم ؟

الجواب

١ - أما بالنسبة إلى استعمال الغلام مع زكريّا فهو المناسب ؛ لأن الله بشره بيحيى ، قال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيٰى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [٣٩] . ويحيى غلام .

أما بالنسبة إلى استعمال الولد مع مريم ، فهو المناسب أيضاً ؛ ذلك أن الله بشرها بكلمة منه اسمه المسيح ، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلٰٓئِكَةُ يٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسٰى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [٤٥] .

والكلمة أعم من الغلام فهي تصحُّ لكل ما أراد الله أن يكون ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، والولد أعمُّ من الغلام ، فالولد يُقال للذكر والأنثى ، والمفرد والجمع ، قال تعالى : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ﴿ ٣٩ ﴾ فعسى ربّي أن يُؤتيني خيراً من جنّيك ﴿ [الكهف : ٣٩ - ٤٠] .

فلما بشرها بالكلمة وهي عامة ، سألت بما هو أعمُّ من الغلام وهو الولد ، فناسب العمومُ العمومَ والخصوصُ الخصوصَ .

ألا ترى في سورة مريم ، حين بشرها رسول ربها بالغلام قائلاً : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ [مريم : ١٩] .

قالت : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم : ٢٠] ، فناسب كل تعبير مكانه .

٢ - وأما قوله مخاطباً زكريّا : ﴿ كَذٰلِكَ أَلٰهتُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ ،

وقوله مخاطباً مريم : ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فهو المناسب أيضاً .
 ذلك أن الفعلَ أيسر من الخلقِ ، فالفعلُ عامٌّ ، ألا ترى أنه قد يقول
 لك قائل : لِمَ فعلت كذا ؟ ولم تفعل كذا ؟ فتقول : أنا أفعل ما أشاء .
 ولا يصحُّ أن تقول : (أنا أخلق ما أشاء) فإنك لا تستطيعُ ذلك .
 هذا وإن إيجاد الذريَّة من أبوين مهما كان شأنهما ، أيسر من
 إيجادها من أمِّ بلا أب .

فناسب ذكرُ الفعلِ الذي هو أيسرُ من الخلقِ مع زكريا .
 وناسب ذكرُ الخلقِ مع مريمَ التي لم يمسسها بشرٌ .





قال تعالى في آل عمران: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [٥٦] وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿ [آل عمران : ٥٦ - ٥٧] .

سؤال

لماذا قال في الآية الأولى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ ﴾ بإسناد التعذيب إلى ضمير المتكلم ، وقال في الآية الثانية: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ بإسناد توفية الأجور إلى الغائب ولم يقل: (فأوفيهم أجورهم) فيكون الكلام على نسق واحد؟

الجواب

إن الآية الأولى في سياق كلام الله سبحانه عن نفسه ، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ خُذْكِتَابَكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْمًا كَافِرًا كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴾ [٥٥] فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿

فناسب إسناد التعذيب إلى نفسه ، جرياً مع سياق الحديث عن النفس .

وأما الآية الثانية ، فهي في مقام الالتفات إلى الغائب ؛ وذلك ليكون مدخلاً إلى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ فإنه لو لم يلتفت لقال : (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأوفيهم أجورهم وأنا لا أحب الظالمين) .

ولم يرد فعل الحب من الله في القرآن ؛ إثباتاً أو نفياً مسنداً إلى ضمير المتكلم ، أي إن الله سبحانه وتعالى لم يقل في جميع القرآن مخبراً عن نفسه بنحو : (وأنا لا أحب الظالمين أو المعتدين) أو : (وأنا أحب الصابرين أو المحسنين) بل يسند ذلك إلى لفظ الجلالة في الأغلب ، أو إلى ضميره كأن يقول : (إنه لا يحب المسرفين) أو : (إنه لا يحب المعتدين) .

فالمناسب هو الالتفات ، وليس الاستمرار بالحديث عن النفس .



قال تعالى في آل عمران: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾
[آل عمران : ٦٤] .

وقال في سورة هود: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ﴾ [هود : ٥٤ - ٥٥] .

سؤال

لماذا قال في آية آل عمران: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فجاء
بالباء مع (أنا) ولم يذكرها في قوله: ﴿وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ﴾ فلم يقل:
(بأنني بريء) مع أن الفعل فيهما واحد، وهو قوله: (اشهدوا)؟

الجواب

إن الباء مُقدرةٌ في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ﴾ والمصدر
المؤول منصوب على نزع الخافض؛ لأن (شهد) بهذا المعنى يتعدى
بالباء، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ [الزخرف : ٨٦] ،
وقوله: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ [يوسف : ٨١] .

ومعلوم أن الذكر أقوى وأكد من الحذف، فقوله: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا

﴿مُسْلِمُونَ﴾ أقوى وأكد من قوله : ﴿وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك .

قال تعالى في آل عمران : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤] .

وقال في سورة هود : ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَبْنَاكَ بِعُضِّ الْهَيْتِنَا يَسُوءٌ قَالِ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ [٥٤ - ٥٥] .

ومن النَّظَرِ في كلِّ من الموضعين ، يتضح أن ما ذكره رسول الله في آل عمران ، أكثر مما قاله نبيُّ الله هود في سورة هود .

فقد قال في آل عمران :

١ - ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ .

٢ - ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ .

٣ - ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ .

وأما في هود فقد ذكر البراءة من الشرك فقط فقال : ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ﴾ ، وهو واحد مما جاء في آل عمران .

ثم لو نظرنا فيما جاء عن الشُّركِ في كلِّ من الموضعين ، لوجدنا أن ما في آل عمران أقوى وأعم ، فقد قال فيها : ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ أي : أي شيء كان ، ولهذا التعبير يحتمل معنيين : لا نشرك به شيئاً من

الشرك ، ولا نشرك به شيئاً من الأشياء .

في حين قال في هود : ﴿ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ^(٥١) مِنْ دُونِهِ ﴿ فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْبِرَاءَةَ مِمَّا يُشْرِكُ قَوْمَهُ . فَكَانَ مَا فِي آلِ عِمْرَانَ أَعْمَ وَأَشْمَلَ ؛ لِأَنَّهُ نَفَى كُلَّ أَنْوَاعِ الشُّرْكِ وَيَدْخُلُ فِيهِ مَا ذَكَرَهُ فِي هودٍ .

فكان ما في آل عمران أقوى وأكد وأعم ، فناسب ذكر الباء فيه ، ولما كان ما في هود جزءاً مما ذكر في آل عمران ناسب الحذف ، والحذف في نحو هذا قياس كما هو معلوم .

* * *



قال تعالى في آل عمران: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

سؤال

من المعلوم أن الحجَّ عبادة مأمور بها المسلمون ، وهي ركنٌ من أركان الإسلام ، فلماذا قال : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فقال : ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ ، والناس فيهم الكافر والمسلم ، ولم يقل : (على المسلمين) أو (على المؤمنين) كما قال تعالى في الصَّيَامِ : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، وكما قال في الصَّلَاةِ : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء : ١٠٣] فذكر المؤمنين ؟

الجواب

١ - قال تعالى قبل هذه الآية : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٦] ، فذكر أن هذا البيت إنما وضع للناس ، فناسب أن يدعو الناس إلى حجِّه .

وقال : ﴿ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ فذكر العالمين ، فناسب ذلك أيضاً أن يدعو العالمين إلى حجه .

وقال : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ فذكر العالمين أيضاً ، فناسب ذلك من جهة أخرى أن يدعو العالمين إلى حجه .

٢ - إن هذه الفريضة تختلف عن بقية الفرائض ، من صلاة وصيام وزكاة ، فإن هذه الفرائض مأمورٌ بها الأنبياء السابقون وأتباعهم .

فقد قال في الصيام : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ .

فذكر أن الصيام كتب علينا كما كتب على الذين من قبلنا ، فلو قال : (لله على الناس أن يصوموا) لقال أصحاب الديانات الأخرى أو كثيرٌ منهم : نحن نصوم ، فنحن قائمون بما أمر الله به .

ولو قال : (والله على الناس إقامة الصلاة) لقال كثيرٌ من أهل الملل من أهل الكتاب وغيرهم : نحن نقيم الصلاة ، فإن الصلاة عبادةٌ مأمورٌ بها الأنبياء وأتباعهم .

قال تعالى في سيدنا موسى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ [يونس : ٨٧] .

وقال على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .



قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ
 أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا
 الَّذِينَ أَبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾

[آل عمران : ١٠٦ - ١٠٧] .

سؤال

لماذا قدّم أولاً من تبيضّ وجوههم على من تسودّ ، فقال : ﴿يَوْمَ
 تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ، ثم قدّم بعده من تسودّ وجوههم على من
 تبيضّ ، فقال : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وقال بعده : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ
 أَبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ .

وكان المظنون أن يكون التفصيل على نسق ما بدأ ، فيقول أولاً :
 (فأما الذين ابيضت وجوههم) ويقول بعده : (وأما الذين اسودت
 وجوههم) نظير قوله تعالى في سورة هود : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٩﴾ فَأَمَّا
 الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١١٠﴾ . . . وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ
 خَالِدِينَ فِيهَا ﴿١١٥﴾ [١٠٥ - ١٠٨] .

فإنه لما قال : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ فقدّم الشقي ، كان التفصيل على نسق ذلك ، فقال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ﴾ فقدّم الذين شقوا على الذين سعدوا ، فما الفرق ؟

الجواب

إن التّقديم والتّأخير في آلِ عمرانَ جرى بحسبِ القربِ والبعدِ ، فمن كان قريباً قدم القول فيه ، ومن كان بعيداً أّخر القول فيه .

وإيضاح ذلك أن الكلام كان على صنفين من النَّاسِ ، أحدهما مُخاطبٌ والآخِرُ غائبٌ ، ولا شك أن المخاطب أقرب من الغائبِ ، فقدّم ما يتعلّق بالمخاطبِ وأخّر ما يتعلّق بالغيابِ .

وبيان ذلك أن السّياق في آلِ عمرانَ إنما هو في خطابِ المؤمنين ، فقد خاطبهم بقوله : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ [١٠٠] ، ويستمرُّ الكلام في خطابهم ، فيقول : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ . . . يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا . . . وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ . . . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ . . . ﴾ [١٠٦ - ١٠١] ، فالمؤمنون هم المُخاطَبون وهم الذين تبيّض وجوههم .

والذين تفرّقوا واختلفوا هم الذين تسودّ وجوههم ، وهم في السياق

غائبون ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فأخبر عنهم بضمير الغيبة ؟

فقدّم القول في المخاطبين كما ذكرنا ، فقال : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ .

وأما الكلام بعد ذلك ، فإن الذين اسودّت وجوههم ، هم المخاطبون فيه ، وأما الذين ابيضّت وجوههم فهم غائبون .

فقد قال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

فقد خاطبهم بقوله : ﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ ، ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

وأما الذين ابيضّت وجوههم فهم هنا غائبون ، فقد قال فيهم : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أبيضّتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

فأخبر عنهم بضمير الغيبة .

فقدّم القول في المُخاطبين كما فعل أولاً ، فجرى الكلام على نسقٍ واحدٍ في التقديم والتأخير .

وأما التقديم والتأخير في سورة هودٍ فقد جرى على نهجٍ واضحٍ أيضاً ، فإن السِّياق فيها في ذكرِ الأممِ الكافرةِ الذين عصوا رسلهم ، وأنزل بهم العقوبات ، ثم عقّب بعد ذلك بقوله : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿٥١﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا

أَغْنَتْ عَنْهُمْ إِلَهَهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴿١٠٠-١٠١﴾ ، فالسِّيَاقُ فِي الْأَشْقِيَاءِ مِنَ النَّاسِ فَقَدَمَ الْأَشْقِيَاءَ ، فَقَالَ : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ .

وَأَمَّا التَّفْصِيلُ فِيمَا بَعْدَ ، فَقَدْ جَرَى عَلَى نَسْقِ مَا ذَكَرَ ؛ لِأَنَّهُمْ كُلُّهُمْ غَائِبُونَ فَهَمُ بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ ، فَقَدْ قَالَ : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَنَارَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ﴾ .

وَقَالَ بَعْدَهَا : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنَارَ خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ السِّيَاقُ فِي آلِ عِمْرَانَ ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مُخَاطَبًا وَمِنْهُمْ غَائِبٌ ، فَجَرَى التَّفْصِيلُ فِي هُودٍ عَلَى مَا أَجْمَلَ ، فَلَمَّا قَالَ : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فَقَدَمَ الْأَشْقِيَاءَ ، فَصَلَّ الْكَلَامَ عَلَى نَسْقِ ذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ فَكَانَ كُلُّ تَعْبِيرٍ مُنَاسِبًا فِي سِيَاقِهِ الَّذِي وَرَدَ فِيهِ .



قال تعالى في آل عمران: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾
[آل عمران : ١٦٧] .

وقال في سورة الفتح: ﴿يَقُولُونَ بِاللِّسَانِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾
[الفتح : ١١] .

سؤال

لماذا قال في آية آل عمران: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ، وقال في
الفتح: ﴿يَقُولُونَ بِاللِّسَانِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ؟

الجواب

إن الأفواه أعمُّ وأشملُ من الألسنة ، فإن اللسان جزءٌ من الفم ،
والمناسب أنه إذا كان القول كبيراً عظيماً ذُكرتِ الأفواه ، وإذا كان أقل
ذُكرتِ الألسنة مناسبةً لكلِّ حالة .

وعلى هذا فقولهُ : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يدل على أن القولَ أعظمُ
وأكبرُ ، والأمر كذلك .

فإن السِّياق في آل عمران إنما هو في المتخلفين عن القتال في

أحد ، فقد دُعوا إلى القتال ، أو الدفع عن المدينة ، فامتنعوا قائلين : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعَنَّكُمْ ﴾ ، قال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعَنَّكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١١٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبُهُمْ قَدْ فَادَرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [١٦٧ - ١٦٨] .

ومما قيل في معنى قوله : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعَنَّكُمْ ﴾ إننا لا نحسن القتال ، ولو كنا نحسن القتال لاتبعناكم .

وأما المذكورون في سورة الفتح ، فهم المتخلفون عن عُمرة الحُدَيْبِيَّة ، فهم لم يذهبوا إلى العُمرة مع الرسول مُعْتَلِينَ ﷺ بِالشُّغْلِ ، قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [١١] .

ومن النظر في السِّيَاقِينَ يتبين ما يأتي :

١ - إن الموقف في آية آلِ عمران إنما هو في قتال المشركين ؛ الذين جاؤوا إلى المدينة .

وأما الموقف في آية الفتح فهو في الذهاب إلى العُمرة ، وليس إلى قتالٍ ، فالموقف في أحدٍ أشدُّ والخطر أظهر .

٢ - إن القول في آيات آلِ عمران أعظم وأكبر مما في الفتح ، فإنهم قالوا : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعَنَّكُمْ ﴾ فهم كانوا مُصْرِينَ على عدم المشاركة

في القتالِ ، راضين بقعودهم ، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يخذلون غيرهم ، ويُرِينون لهم القعود ، فقد قال عنهم سبحانه إنهم قالوا لإخوانهم : ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ ، فهم لم يندموا ، بل كانوا يرون ذلك من بُعد النظر .

وأما المُخَلَّفون الذين ذُكروا في سورة الفتح ، فإنهم قالوا : ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ .

فاعتذروا عن عدم الذهابِ إلى العُمرَة بالشُّغْلِ ، وأنهم طلبوا الاستغفارَ من الرسول ﷺ ، فهم أظهروا للرسول ﷺ أنهم مُقَصَّرُونَ وأنهم مذنبون فطلبوا الاستغفار ، وأنه كان لهم عذر .

ولم يُظهِرِ الأولون ذلك ، بل كانوا راضين بما فعلوا مُخَذَّلِينَ لغيرهم ، غير نادمين ولا طالبين لمغفرة .

فقول أصحاب أحد أكبر وأعظم ، وموقفهم أخطر وأكبر ، فناسب أن يُذكرَ فيهم ما هو أكبر وهو الأفواه ، وناسب ذكر الألسنة في آية الفتح .



قال تعالى في سورة النساء: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٦ - ٢٨] .

سؤال

- ١ - لماذا رتب الآية السادسة والعشرين على هذا النحو ، أي قدم البيان ، ثم الهداية ، ثم التوبة ؟
- ٢ - لماذا قدم لفظ الجلالة على الفعل (يريد) في الآية السابعة والعشرين ؟
- ٣ - لماذا عدت فعل الإرادة باللام في الآية السادسة والعشرين ، وعداه بنفسه في الآية التي بعدها ؟

الجواب

- ١ - بالنسبة إلى التقديم والتأخير في الآية الأولى ، فإن هذا هو الترتيب الطبيعي ، فإنه قدم البيان على هداية السنن ؛ لأن البيان مقدم

على الهداية ، فالهداية تكون بعد البيان ، وإلا فالإلى أي شيء يهديه ؟
وأما التوبة فهي بعد البيان والهداية ، فإنها تكون بعد التقصير في
الاتباع ، وارتكاب الذنوب والمعاصي .

٢ - قُدِّمَ لفظُ الجلالةِ على الفعلِ (يريد) في الآيةِ السابعةِ
والعشرين لأكثر من سببٍ .

منها : أنها بمقابل ما يُريده الذين يتبعون الشَّهواتِ .

ومنها : أن هذا التقديم يُفيد الاهتمامَ والتوكيدَ ، والمبالغةَ في
إرادة التوبة من الله^(١) .

ومن جهةٍ أخرى أن هذا التقديمَ يُفيد الحصرَ ، إضافةً إلى
ما تقدّم ، فإن التوبة مُختصة بالله حصراً ، فلا يتوب غيره على العبدِ ،
ولا يمكنه ذلك .

قد تقول : ولمَ كان هذا الموضع موضع تأكيدٍ ومبالغةٍ ؟

فنقول : إن ذلك لأكثر من سببٍ :

منها : أن التوبة من الله أهم شيءٍ بالنسبة إلى العبد ، ولا يقوم شيءٌ
مقامها ، فإنه إذا لم يتب الله على العبد هلك .

ثم إن السِّياق يدل على ذلك ، فقد كرّر إرادة التوبة ، فقال :

﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

(١) انظر : تفسير البضاوي (١٠٩) ، روح المعاني (٥ / ١٢) .

وقال إضافةً إلى ذلك : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴾ والتوبة من الله تخفيفٌ عن العبد .

ومما يدلُّ على ذلك أيضاً أنه قال : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ بمقابل ما ذكره من إرادة الفجَّارِ ، فقد قال : ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ .

وكان المظنونُ بمقابل ذلك أن يقول : (والله يريد أن تستقيموا) مثلاً أو أن تطيعوه ، فإن الاستقامة تُقابل الميلَ ، ولكنه لم يقل ذلك ، وإنما قال : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ فذكر ما هو أخفُّ ، ولا شك أن ذكر هذه الإرادة بمقابل ما يريده الذين يتبعون الشهواتِ رحمةٌ وتخفيفٌ .

ثم ذكر أن الإنسان خلق ضعيفاً ، والضعيف به حاجةٌ إلى التخفيفِ ، والتوبة من التخفيفِ .

ثم إن السياق قبل هذه الآياتِ في ذكرِ التوبةِ ، فقد قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَهَا مِنْكُمْ فِتْنًا وَهُمْ مُبْتَلُونَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمْ إِنَّا اللَّهُ كَانَتْ تَوَابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا ﴾ [١٦ - ١٨] .

فأتضح أن سياق الآياتِ وما قبلها إنما هو في التوبةِ ، فافتضى ذلك الاهتمامَ والمبالغةَ في إرادة التوبةِ .

واقترضى تقديم لفظ الجلالة من كل وجه .

قد تقول : لقد اتضح سبب تقديم لفظ الجلالة في قوله : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ فلم لم يقدم الذين يتبعون الشهوات ، فيقول : (والذين يتبعون الشهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً) حتى يكون التعبيران على نسقٍ واحدٍ ؟

فنقول : إن الذين يتبعون الشهوات ليسوا وحدهم الذين يريدون للمسلمين أن يميلوا ميلاً عظيماً ، بل هناك غيرهم ممن يريد ذلك من المنافقين ، وأهل الكتاب والمشركين ، وغيرهم ممن يأكل قلبه الحسدُ والحقدُ ، أو لغير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَكَرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] . وقال : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [المائدة : ٨٢] . وقال : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة : ٦٨] .

وقال في المنافقين : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكُمُ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ ﴿٨٨﴾ و﴿٨٩﴾ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ [النساء : ٨٨ - ٨٩] .

فذكر أن الذين يتبعون الشهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً ، ولم يقصر ذلك عليهم فلا يُناسب التقديم .

٣ - وأما تعدية فعل الإرادة باللام مرة ، وبنفسه مرة أخرى ، فإن التعدية باللام تحتمل أمرين :

الأول : أن تكون اللام مزيدةً للتوكيد ، وهذا كثيرٌ في أفعال الإرادة ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ، وقوله : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [الصف : ٨] ، والآخر : أن تكون اللام للتعليل^(١) ؛ أي إرادته لهذا الغرض .

وكلاهما يدلُّ على المبالغة والقوة ، وهو آكدُّ وأقوى من التعدية بنفسه^(٢) ، فالتعبير (يريد الله ليتوب عليكم) آكد من : (يريد الله أن يتوب عليكم) .

وقد ذكر الله الأمرين فإن قوله : ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ في الآية الأولى أي في قوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُسَبِّحَ لَكُمْ . . . وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ معطوفٌ على إرادة اللام .

وفي الثانية مفعولٌ به للفعل (يريد) .

فتكون إرادة الله للتوبة مطلوبةً مؤكدةً على كل حالٍ ، وهذا يدل على عظيم رحمة الله بخلقه .

ولما كانت الآية الأولى ذكرت أموراً في غاية الأهمية ، منها البيان لما يريده الله ، وهداية الخلق لما يريد ، ومنها التوبة ، جاء بفعل الإرادة معدى باللام .

(١) انظر : تفسير البيضاوي (١٠٩) .

(٢) انظر : كتابنا (معاني النحو) (٦٧ / ٣) وما بعدها .



ولما كانت الآية التي تليها مندرجةً في مطلوبِ الآيةِ السابقةِ ، وهي إرادةُ التوبةِ ، وليس فيها ما في الآية التي قبلها لم تحتجِ إلى اللّامِ .
وقد تقول : ولمَ لمَ يقدّم لفظ الجلالةِ في الآيةِ الأولى فيقول : (اللهُ يريد ليبين لكم) ؟

فنقول : إن هذا المواطنَ لا يقتضي التّقديم ؛ لأنه لم يذكر أن جهةً أخرى تُريد غير ذلك ، ولا هو موطنُ تعريضٍ بجهةٍ أخرى تريد غير هذا الأمر ، وإنما هو إخبارٌ عن إرادةِ الله لذلك ، بخلاف الآية التي تليها ، فإنه ذكر جهةً أخرى تريد غير ما يريده الله للمؤمنين .
فلا يناسبُ التّقديمَ في الآيةِ الأولى ، والله أعلم .





قال تعالى في سورة النَّسَاءِ : ﴿ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٩٢] .

وقال في سورة التَّوْبَةِ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة : ١٠٤] .

وقال في سورة الشُّورَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ [الشورى : ٢٥] .

سؤال

لماذا جاء مع التوبة ب : (من) في آية النَّسَاءِ ، وجاء معها ب : (عن) في آيتي التوبة والشُّورى ؟

الجواب

لقد ذكر (من) مع التوبة لِيُبَيِّنَ الجَهَةَ التي تقبل التوبة ، وهو (الله) .

وذكر معها (عن) لِيُبَيِّنَ طالبَ التَّوْبَةِ وهمُ العبادُ .

فقوله : ﴿ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ يعني أن التَّوْبَةَ قَبْلِهَا اللَّهُ ، وهو يتوب على مَنْ يفعل ذلك .

وقوله : ﴿ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ يعني أنه يقبل التوبة التي تصدر عن عباده طالبين لها .

وقيل : إن معناه أنه يتجاوز عنهم ، ويعفو عن ذنوبهم التي تابوا منها ، جاء في « روح المعاني » : « وتعديّة القبول بـ : (عن) لتضمُّنه معنى التَّجَاوُزِ والعفو أي : يقبل ذلك متجاوزاً عن ذنوبهم التي تابوا عنها » (١) .

* * *

(١) روح المعاني : (١١ / ١٥) .



قال تعالى في سورة النساء: ﴿ لَكِنَّ الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا اُنزِلَ اِلَيْكَ وَمَا اُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِيْنَ الصَّلٰوةَ وَالْمُؤْتُوْنَ الزَّكٰوةَ وَالْمُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ اُولٰٓئِكَ سَنُوْتِيْهِمْ اَجْرًا عَظِيْمًا ﴾ [النساء : ١٦٢] .

سؤال

لماذا قال : ﴿ وَالْمُقِيمِيْنَ الصَّلٰوةَ ﴾ بنصب ﴿ الْمُقِيمِيْنَ ﴾ مع أنه معطوفٌ على ﴿ الرّٰسِخُوْنَ ﴾ وهو مرفوع ؟

الجواب

إن هذا مما يسمى في علم النحو بالقطع ، وهو يكثر في المدح والذم والترحم ، ويكون ذلك لأهمية المعطوف^(١) .

والقطع هنا للمدح ، وهو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديره (أمدح) أو (أخص) .

وحسن القطع أنه ذكر عبادتين ظاهرتين وهما : إقامة الصلاة وإيتاء

(١) انظر : (معاني النحو) (٣ / ١٨٧) وما بعدها .

الزكاة ، والصلاة أهم من إيتاء الزكاة ؛ لأنها فرض عين على كل مكلفٍ سواء كان غنياً أم فقيراً ، صحيحاً أم سقيماً ، وهي أهمُّ ركنٍ في الإسلام ، ولا تسقط في حالٍ من الأحوال ، ولذا قطعها للدلالة على فضلها على الزكاة ، أما الصفات الأخرى فهي أمورٌ باطنةٌ وقلبيةٌ .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

فقطع الصابرين لفضلهم ، وذلك أنهم صابرون في الفقر ، وفي المرض ، وفي القتال ، والبأساء هي البؤس والفقر ، والضراء السقم والوجع ، وحين البأس ؛ أي وقت القتال وجهاد العدو^(١) .

جاء في (البحر المحيط) : « انتصب (والصابرين) على المدح .

ولما كان الصبر مبدأ الفضائل - ومن وجهه - جامعاً للفضائل ؛ إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثرٌ بليغٌ ، غير إغرابه ؛ تنبيهاً على هذا المقصد^(٢) .

(١) انظر : روح المعاني (٢ / ٤٨) ، البحر المحيط (٢ / ٧) .

(٢) البحر المحيط (٢ / ٧) .

وجاء في (روح المعاني) : « وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُؤْتِيكَ » نصب على المدح بتقدير : أخصُّ أو أمدح .

وغير سبكه عما قبله ؛ تنبيهاً على فضيلة الصبر ومزيتة على سائر الأعمال ، حتى كأنه ليس من جنس الأول^(١) .

* * *

(١) روح المعاني (٢ / ٤٧) .



قال تعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ
وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ
قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا ﴿ النساء : ١٦٣ - ١٦٤ ﴾ .

سؤال

لماذا خصّ داود بقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ ؟

والجواب

إن أهل الكتاب سألوا سيدنا محمداً ﷺ أن يُنزل عليهم كتاباً من
السَّمَاءِ ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ
فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء : ١٥٣] .

فأجابهم ربُّ العزة أن محمداً ﷺ أوتي مثلما أوتي رسل الله الذين
تؤمنون بهم ، وتُقررون بنبوتهم ، فقال : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا

إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿ وَمَنْ ذَكَرَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
الْآخِرِينَ .

وَاتَيْنَاهُ كَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ، وَقَدْ نَزَلَ الْكِتَابُ عَلَى دَاوُدَ
مِنْجَمًا^(١) ، وَكَذَلِكَ نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ .

فَإِنْ مَنْ ذَكَرَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ سَبَقَ ذَكَرَهُمْ ذَكَرَ دَاوُدَ ، اشْتَرَكُوا
فِي الْوَحْيِ ، وَلَمْ يَأْتِهِمْ كُلُّهُمْ كِتَابًا ، فَإِنْ قَسَمْنَا مِنْهُمْ لَمْ يَنْزَلْ عَلَيْهِمْ كِتَابًا ،
فَاشْتَرَكُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ فِي الْوَحْيِ ، وَأُوتِيَ كِتَابًا كَمَا أُوتِيَ دَاوُدَ الَّذِي
تَوَمَّنُونَ بِهِ ، وَأُرْسِلَهُ كَمَا أُرْسِلَ رُسُلًا آخِرِينَ قَصَّهِمْ عَلَيْهِ ، وَآخِرِينَ لَمْ
يَقْصِصْهُمْ عَلَيْهِ .

وَقَدْ تَقُولُ : وَلَمْ قَالَ : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ
نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ؟

وَالْجَوَابُ : إِنْ قَسَمْنَا مِنْهُمْ ذَكَرَهُمْ فِي صَدْرِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْبِيَاءَ ، وَلَيْسُوا
رُسُلًا مِثْلَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، فَقَدْ أُوتِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ مِثْلَمَا أُوتِيَ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ
وَرُسُلُهُ جَمِيعًا .

١ - فَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْهِ كَالنَّبِيِّينَ .

٢ - وَأُوتِيَ كَمَا أُوتِيَ دَاوُدَ .

٣ - وَأُرْسِلَ كَمَا أُرْسِلَ رُسُلُ اللَّهِ مِنْهُمْ قَصَّهِمْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ لَمْ
يَقْصِصْهُمْ عَلَيْهِ .

(١) انظر : روح المعاني (٦ / ٢٦) .

٤ - ذكر سبحانه أن الله كلم موسى تكليماً ، وهذه خصوصية لموسى ﷺ .

وأوتي محمد ﷺ ما هو أعظم من ذلك ، فإن موسى كلمه الله على الطور ، وأما محمد ﷺ فقد عرج به إلى السموات العلا ، إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى .

ثم إن موسى خرَّ صعقاً .

وأما محمد ﷺ فقد قال ربه فيه : ﴿ مَا زَاغَ أَبْصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٧] ، فأحرى بكم أن تؤمنوا به ، وقد أوتي مثلما أوتي رُسل الله .

جاء في (روح المعاني) في تحقيق المماثلة بين شأنه ﷺ « وبين شؤون من يعترفون بنبوته من الأنبياء ﷺ في مطلق الإيحاء ، ثم في إيتاء الكتاب ، ثم في الإرسال ، فإن قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴿ منتظمٌ لمعنى (آتيناك) و (أرسلناك) فكأنه قيل : إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى فلان وفلان ، وآتيناك مثلما آتينا فلاناً ، وأرسلناك مثلما أرسلنا الرسل الذين قصصناهم وغيرهم ، ولا تفاوت بينك وبينهم في حقيقة الإيحاء والإرسال ، فما للكفرة يسألونك شيئاً لم يُعطه أحدٌ من هؤلاء الرُسل عليهم الصلوة والسلام » (١) .

* * *

(١) روح المعاني : (٦ / ٢٦) .



قال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة : ٢] .

وقال في السورة نفسها أيضاً : ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى﴾ [المائدة : ٨] .

فقال في الآية الأولى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ ... أَن تَعْتَدُوا﴾ ، والتقدير : (على أن تعتدوا) فحذف (على) ، وقال في الآية الثانية : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى ءَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فذكر (على) فما السبب ؟

الجواب

إن الذكر يفيد التوكيد فذكر (على) في الآية الثانية ؛ لأنها أكد ، ذلك أن الآية الأولى في حالة وقعت ومضت وهي حالة عارضة ، وذلك في قوم صدّوهم عن المسجد الحرام ، وهي في أهل مكة وذلك عام الحديبية .



أما الآيةُ الثانيةُ فهي نهي عن حالةٍ مستديمةٍ إلى يوم القيامةٍ ، وهي
النَّهي عن عدم العدلِ .

ثم إنَّ الاعتداءَ يدخل في عدم العدلِ ؛ لأنه اعتداءٌ فدخلت الآيةُ
الأولى في الثانية .

فالثانية أكد وأعم وأشمل ، فجاء فيها ب : (على) وحذفها من
الأخرى .





قال تعالى في سورة المائدة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة : ٦] .

سؤال

هل يصح في اللغة عطف الأرجل على الوجوه في الغسل ، مع أنه قد فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بأجنبي عن الغسل ، وهو المسح بالرؤوس ؟ ثم لماذا فعل ذلك ؟

الجواب

لا شك في صحة هذا العطف في اللغة ، وهو كثير في القرآن وغيره ، قال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : ١٧ - ١٨] .

فقد عطف : ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ على : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ وبينهما متعاطفات ، فقوله : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ فَسَبِّحْنَا اللَّهَ ﴾ ، و﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ معطوفة على ﴿ السَّمَوَاتِ ﴾ .

ونحو ذلك آية الكرسي ، فإن قوله : ﴿ وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ معطوفٌ على قوله في أول الآية : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ وبينهما متعاطفاتٌ مختلفةٌ وهي : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ تَلَسَّ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَّ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، فعطف : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ على ﴿ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي (ومن أقام الصلاة) على ما بينهما من متعاطفاتٍ .

وقال تعالى في سورة الجن : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُغْفَرْنَ لَهُنَّ وَاللَّيْمَاتُ الْمُنْتَهَاتُ يُغْفَرْنَ لَهُنَّ وَالْمُؤْمِنَاتُ الْمُهْتَمَاتُ يُغْفَرْنَ لَهُنَّ وَالْمُؤْمِنَاتُ الْمُهْتَمَاتُ يُغْفَرْنَ لَهُنَّ ﴾ [الجن : ١٦] فعطف هذه الآية على قوله : ﴿ قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ أُسْمِعَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ وهي الآية الأولى .

فعطف الآية السادسة عشرة على الآية الأولى .

وفي سورة الأعراف عطف قوله : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [٨٥] على قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [٥٩] .

على ما بينهما من بُعد ، وذكر قصصاً متعددةً ومتعاطفاتٍ كثيرةً ، فإن بينهما ستاً وعشرين آيةً ، فلا خلاف في صحّة نحو هذا .

تقول في الكلام : (ذهبت إلى السوق فاشتريت من البقالِ فاكهةً وخضراواتٍ وبيضاً ، ومن البزازِ قماشاً وقميصاً ، ومن المكتبةِ كتابين ودفترأً ، ثم عدت) فتعطف الفعل (عدت) على (ذهبت) في أول

العبارة على ما بينهما من متعاطفاتٍ متعددةٍ مختلفةٍ .

أما لماذا فعل ذلك في آية الوضوء ، فإن الغرضَ إرادةُ الترتيبِ في الوضوء ، فإنه يجب أن تكون أعمالُ الوضوء مرتبةً بحسب ما ذكره القرآن الكريم .





لماذا قال تعالى في المائدة: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾
 [المائدة: ٢٦] ، وقال في السورة نفسها في الآية [٦٨] : ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى
 الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ؟

الجواب

إن الآية الأولى قالها ربنا في قوم موسى ؛ الذين نكلوا عن قتال
 الجبارين ، وقالوا : ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ
 وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [٢٤] قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي
 فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [٢٥] قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
 يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [٢٤-٢٦] .

وقوم موسى ليسوا كافرين ، وإنما هم فاسقون لمخالفة أمر الله في
 القتال ، ثم إن هذا الوصف مجانس لما وصفهم به موسى ﷺ
 بقوله : ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فقال له ربه : ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى
 الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ .

وأما الآية الثانية فهي خطابٌ لرسوله محمد ﷺ بخصوص أهل

الكتاب الذين لم يؤمنوا به ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وهؤلاء كفرون ، فإنهم لم يؤمنوا برسول الله ، وقد قال الله في هذه الآية : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ فذكر أنه يزيدهم ما أنزل إليه طغياناً وكفراً ، فقال فيهم : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

* * *



قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

وقال في سورة الأحقاف: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ [١٦] .

سؤال

عدى الفعل (تقبل) في آية المائدة ب : (من) فقال : ﴿ فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ . . . إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، وعدى الفعل في آية الأحقاف ب : (عن) فقال : ﴿ نَقَبَلُ عَنْهُمْ ﴾ فما السبب ؟

الجواب

إن تعدية الفعل (تقبل) ب : (من) تدل على الاهتمام أو العناية بالذات أو الجهة التي يتقبل منها .

وتعديته ب : (عن) تدل على الاهتمام والعناية بتقبل العمل الصادر عنها ، فإذا كانت العناية والاهتمام بالذات أو الجهة التي يتقبل منها عداها

ب : (من) ، وذلك نحو قوله : ﴿ فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ ﴾ ، وقوله : ﴿ رَبَّنَا نَقَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] ، وقوله : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ [آل عمران : ٣٥] .

أما إذا كان محطَّ العناية والاهتمام على العمل وقبوله فإنه يعديّه ب : (عن) ، وذلك نحو قوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَنقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أي : نتقبل العمل الصادر عنهم .

وحيث عُدي الفعل (تقبل) ب : (من) لم يذكر له مفعولاً ، أو هو يبينه للمجهول ؛ مما يدلُّ على الاهتمام بالذات أو الجهة التي يتقبل منها .

فإذا عدَّاه ب : (عن) ذكر العمل كما في الآية المذكورة ، وهي الآية الوحيدة في القرآن الكريم .

فدلَّ على أن مناط الاهتمام بالعمل مع تعدية الفعل ب : (عن) ، ومناط الاهتمام بالذات أو الجهة مع تعديته ب : (من) ، والله أعلم .



قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسَّكَ يَخْتَرِ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام : ١٧] .

وقال في سورة يونس : ﴿وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ يَخْتَرِ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس : ١٠٧] .

سؤال

لماذا اختلف التعقيب في الآيتين ، فقال في آية الأنعام : ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، وقال في آية يونس : ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ ؟

الجواب

إن آية الأنعام في افتراض مسّ الخير ، فقد قال : ﴿وَإِن يَمَسَّكَ يَخْتَرِ﴾ ، وأما آية يونس فهي في افتراض إرادة الخير وليس المسّ ، فقد قال : ﴿وَإِن يُرِدْكَ يَخْتَرِ﴾ ، والإرادة من غير الله قد لا تتحقق ؛ لأنه قد يحول بينها وبين وقوعها حائل ، وأما إرادته سبحانه فلا رادّ لها .

فاختلف التّعقيبان بحسب ما يقتضيه المقام .



ألا ترى أنه لما اتفق الافتراضان في مسّ الصُّرِّ اتفق الجوابان ، فقد قال في كلِّ منهما : ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ ؟ ولما اختلف الافتراضان كان الجواب بحسب ما يقتضيه كلُّ افتراضٍ .

* * *



قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ٥١] .

وقال في سورة الأنعام أيضاً: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وِلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام : ٧٠] .

وقال في سورة السَّجْدَةِ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وِلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة : ٣ - ٤] .

سؤال

لماذا قال تعالى في آيتي الأنعام: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ، و: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وِلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ فنفسى ب: (ليس) .

وقال في آية السَّجْدَةِ: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وِلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ فنفسى

ب : (ما) ، وجاء معها ب : (من) ؟

الجواب

إن التَّفِي في آية السَّجْدَةِ أقوى منه في آيتي الأنعام ؛ ذلك أن آيتي الأنعام من الجمل الفعلية ، فهي مبدوءة ب : (ليس) . و (ليس) فعل .

وأما آية السَّجْدَةِ فهي جملة اسمية منفية ب : (ما) ، ومعلوم أن الجملَ الاسمِيَّةَ أقوى من الفعلية ، و (ما) أقوى من (ليس)^(١) .

هذا علاوة على المجيء مع ذلك ب : (من) الاستغراقية التي تُفيد نفي الجنس وتُفيد التوكيد مع ذلك ، فهي تُفيد نفي الولي والشَّفيع على سبيل الاستغراق .

وأما سبب ذلك - والله أعلم - فإن الكلام في آيتي الأنعام على أصنافٍ خاصةٍ من الناس .

فإن الإنذار في الآية الأولى للذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم على هذه الحالة ، وهناك غيرهم كثيرٌ من غير هذا الصَّنَفِ ، فإن هناك مَنْ لا يؤمن أصلاً باليوم الآخر ، ولا يخاف الحشر ، وهناك أصنافٌ آخرون غير هؤلاء .

وأما الآية الثانية فإن التَّذكير فيها لنفي مخافة أن تؤخذ بجريرتها وتُسلم بذنبتها وتفضح به ، وذكر من حالة هذا الصَّنَفِ بقوله : ﴿ أُولَئِكَ

(١) انظر : معاني النحو (١ / ٢٧٢) وما بعدها .

الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ .

وأما آية السجدة فالخطاب لعموم من يصحُّ خطابه من الثقلين ، لا يخصُّ صنفاً دون صنفٍ ولا واحداً دون آخر ، وإنما هو خطابٌ عامٌّ يعم الجميع ، فقد قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ فلم يذكر صفة معينة ، ولا صنفاً خاصاً .

فلما عمَّ ذلك الجميع احتاج إلى التوكيد ولا شك ، فإنه جارٍ في العادة أن يكون للشخص وليٌّ واحدٌ ، أو أن يكون لمجموعة من الناس وليٌّ واحدٌ ، أما ألا يكون للخلق جميعاً إلا وليٌّ واحدٌ وليس لأحد منهم وليٌّ غيره ، فهذا يحتاج إلى التوكيد ، فأكدته بالجملة الاسمية (من) الاستغرافية .

هذا أمرٌ .

والأمر الآخر أنه لم يذكر في آيتي الأنعام شيئاً من صفات الله ، وإنما ذكر اسمه العلم في آية ، فقال : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ، وأعاد الضمير على الربِّ في الآية الأخرى ، فقال : ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ .

وأما في آية السجدة فذكر له صفاتٍ عظيمةً ، فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [٤] .

وقال : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [٥] .

وقال : ﴿ ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿ [٦ - ٧] .

ويستمرُّ في ذكرِ صفاته العظيمة وقدرته التي لا تُحَدُّ .

فناسب ذلك أن يؤكد أنه ليس للخلق من دونه وليٌّ ، ولا من دونِ رضاه شفيع ، وإنما هو الولي الأوحد للخلق أجمعين .

قد تقول : ولكنه ذكر من صفات المعصية والضلال في آيتي الأنعام ما لم يذكره في آية السجدة ، أفلا يقتضي ذلك توكيد نفي الوليِّ والشفيعِ فيهما ؟

والجواب : أن ليس الأمر كما توهمت ، بل لقد ذكر في سياق آية السجدة من المعصية والكفر ما لم يذكر في آيتي الأنعام .

فقد قال في آية الأنعام [٥١] : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ .

فلم يذكر لهم معصية ، وإنما قال عنهم : إنهم يخافون أن يحشروا إلى ربهم في هذه الحال ، ومعنى ذلك أنهم مقرِّون بالحشر ، معترفون به ، يخافون ربهم ويخافون أن يحشروا ، وليس لهم من دون الله وليٌّ ولا شفيعٌ ، وهذا ليس معصية ولا ذنباً .

وأما آية الأنعام الأخرى فإنه قال فيها : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ

لِعِبَابٍ وَلَهْوَآءٍ ﴿١٠٠﴾ أَي : اتركهم ، ﴿وَذَكَّرِيهِمْ﴾ : أَي بِالْقُرْآنِ مَخَافَةَ أَنْ تُوْخَذَ نَفْسٌ بِجَرِيرَتِهَا وَتَجْزَى بِكَسْبِهَا ، وَلَمْ يَذْكَرْ لَهَا ذَنْباً ، وَأَمَّا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِعِبَابٍ وَلَهْوَآءٍ ، فَأَمْرٌ بِتَرْكِهِمْ .

وَأَمَّا آيَةُ السَّجْدَةِ فَإِنَّهَا فِي سِيَاقٍ مِنْ يَنْسَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْكُذْبَ وَافْتِرَاءَ الْقُرْآنِ وَفِي مَنْ يَنْكُرُ الْحَشْرَ وَالْمَعَادَ ، فَقَالَ : ﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ بَلَّ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فَنَسَبُوا إِلَيْهِ ﷺ افْتِرَاءَ الْقُرْآنِ أَي كَذْبَهُ عَلَى اللَّهِ ، وَقَالَ عَنْهُمْ : ﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءَأَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلَّ هُمْ بَلِغَاءُ رَبِّهِمْ كَفَرُونَ﴾ [١٠٠] .

فَهُمْ كَذَبُوا الرَّسُولَ ﷺ وَأَنْكَرُوا الْحَشْرَ وَالْمَعَادَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا أَكْبَرُ مِمَّا ذُكِرَ فِي آيَةِ الْأَنْعَامِ ، فَاقْتَضَى السِّيَاقُ تَوْكِيدَ نَفْيِ الْوَلِيِّ وَالشَّفِيعِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَطَاعَتَهُ وَرِضَاهُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ أَيْضاً ، فَاقْتَضَى تَوْكِيدَ ذَلِكَ فِي آيَةِ السَّجْدَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .



قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ [الأنعام : ٨٣ - ٨٦] .

سؤال

ما سرُّ ترتيبِ الأنبياءِ في هذه الآياتِ ؟

الجواب

ربنا أعلم بسرِّ ترتيبِ كلامِهِ ، ولكن هناك أكثرُ من ظاهرةٍ في ترتيب هؤلاء الأنبياءِ سلام الله عليهم ، فنحن نلاحظ نسقاً منتظماً في هذا الترتيب ، وهو أنه يذكر ثلاثة أنبياء ثم يعود إلى مَنْ هو أقدم من المذكورين .

ثم يذكر ثلاثة أنبياء آخرين ويعود بعدهم إلى مَنْ هو أقدم ، وهذا هو الأمر الظاهر في هذا الترتيب .

١ - فقد ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ثم ذكر بعدهم مَنْ هو أقدم منهم جميعاً ، وهو نوح عليه السلام .

٢ - ثم ذكر بعد ذلك : داود وسليمان وأيوب ، ثم ذكر بعدهم مَنْ هم أقدم منهم وهم : يوسف وموسى وهارون .

٣ - ثم ذكر بعد ذلك : زكريّا ويحيى وعيسى ، ثم ذكر بعدهم : إلياس وهو أقدم منهم .

٤ - ثم ذكر إسماعيل واليسع ويونس ، ثم ذكر بعدهم : لوطاً وهو أقدم منهم .
هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى : إن هناك علاقة ما تربط بين المذكورين ، إضافة إلى علاقة النبوة التي تجمع بين الجميع ، وإيضاح ذلك :

١ - أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب تربط بينهم علاقة النبوة ، فإسحاق ابن إبراهيم ، ويعقوب ابن إسحاق .

٢ - وأن داود وسليمان تربط بينهما علاقة النبوة والملك ، فسليمان ابن داود ، وكانا ملكين .

٣ - وأن سليمان وأيوب كلاهما قال الله تعالى فيهما : ﴿ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] ، أولهما : الغني الشاكر وهو سليمان ،

وثانيهما : الفقير الصابر ، والشكر والصبر جماع الإيمان كما قيل ، فإن الإيمان نصفه صبرٌ ونصفه شكرٌ ، وقد جمع بينهما في سورة (ص) .

٤ - أيوب ويوسف : كلاهما أنعمَ عليه بعد الابتلاء ، وأصابه الرخاء بعد الشدة .

٥ - يوسف وموسى : كلاهما رسولٌ ، ولم يذكر القرآن بينهما اسمَ رسولٍ فيما أعلم ، وقد قال موسى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ كُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْلَمْتُمْ فِي شَكِّكُمْ مِمَّا جَاءَ كُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن نَّبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ [غافر : ٣٤] .

٦ - موسى وهارون يجمع بينهما الأخوة والرسالة .

٧ - زكريا ويحيى : يجمع بينهما النبوة فيحيى ابن زكريا .

٨ - يحيى وعيسى : كلاهما مستغربُ الولادة .

الأول : من أبوين لا ينجان أحدهما شيخٌ فإن ، والآخر أمٌ عاقرةٌ ، وعيسى من أمٍ بلا أب .

٩ - أن عيسى خاتمة النسب من ولد إسحاق إذ ليس له أبٌ ، والمذكورون بعد عيسى سلسلةٌ أخرى ، ومن ذرية أخرى ليست من ذرية إسحاق ، فكان عيسى الحد الفاصل بين السلسلتين .

١٠ - فقد ذكر أن إلياس من ولد إسماعيل وليس من ذرية إسحاق .

١١ - وإسماعيلُ أخو إسحاقَ ، وهو ابن إبراهيمَ من هاجر عليهم السلام .

١٢ - اليسع صاحبُ إلياسَ ، وحيث ورد ذكر اليسع في القرآن ، يسبقه بذكر إسماعيلَ .

١٣ - يونسُ ولوطُ كلاهما ليس من ذرية إبراهيمَ ، وكلاهما خرج يحمل همَّ الدعوة إلى الله .

فإن يونس خرج مُغاضباً قومه ، وظنَّ أن لن يضيقَ الله عليه ، فخرج يحمل همَّ الدعوة إلى الله .

وإن لوطاً خرج مهاجراً إلى ربه ، كما قال تعالى فيه : ﴿ فَمَنْ لَّمْ يُؤْتَ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [العنكبوت : ٢٦] .

وجمع بينهما في سورة الصّافاتِ .

فبدأت زمر الأنبياء بالذهابِ إلى ربِّه وهو سيدنا إبراهيمَ ، ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ [الصافات : ٩٩] . وختمت بالمهاجر إلى ربِّه سيدنا لوط .

قد نقول : لم بدأ بسيدنا إبراهيمَ ، ولم يبدأ بسيدنا نوح عليه السلام ؟

والجواب : إن الكلامَ والسياقَ في سيدنا إبراهيمَ ، فإن الآياتِ تبدأ بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِزْ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً . . . وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلُ رءَا

كُوكِبًا ... فَلَمَّارَةً الْقَمَرَ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي ... فَلَمَّارَةً الشَّمْسَ بَارِزَةً قَالَ
هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ... ❖ .

ويستمر الكلام على سيدنا إبراهيم من الآية (٧٤) إلى الآية
(٨٣) ، فكان ذلك هو المناسب .

وقد أُثير سؤال آخر في هذا السياق : وهو أنه قال تعالى : ❖ وَمَنْ
ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ❖ فَلِمَ لَمْ يقل : (وأزواجهم) ؟

والجواب : إن السياق في ذكر الأنبياء ، والنساء لسن كذلك ،
فلا يناسب ذكر الأزواج .

* * *



في الآياتِ السَّابِقَةِ وهي قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَىٰ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾] الأنعام : ٨٣ - ٨٦ .

سؤال

لماذا ختم الآيات بما ختم ، فقال في مجموعة من الأنبياء :
 ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وقال في قسم آخر : ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ،
 وقال في الآخرين : ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ؟

الجواب

إن خاتمة كل آية مناسبة لمن ذكر فيها من الأنبياء ، وإن كانت كل فاصلة تصح على جميع الأنبياء .

فقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا

هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ ذكر فيه إسحاق ويعقوب ، وقد أنعم الله عليهما
بالهداية ، فقال : ﴿ كَلَّا هَدَيْنَا ﴾ ويعقوبُ أنعم الله عليه بلقب
(إسرائيل) ، وقيل : معناه في لسانهم : صفوة الله ، وقيل : عبد الله ،
وقيل : رجل الله ، وقيل غير ذلك (١) .

وأنعم عليه بعد فقدٍ ولده بأنه أعاد إليه ولده ، وجعله عزيز مصر ،
ورفعه ابنه على العرش ، وجعل أولاده أنبياء وهم الأسباط ، وذريته من
بعده ينتسبون إليه اعتزازاً به فيقال : (بنو إسرائيل) .

وداود صار قائداً وصار ملكاً ، وسليمان ملكٌ ، وهب الله له ملكاً
لا ينبغي لأحد من بعده ، وأيوب أغناه الله بعد الابتلاء ، وآتاه أهله
ومثلهم معهم ، وآتاه مالاً وفيراً ، وموسى وهارون أكرمهما الله بالرسالة
والآيات العظيمة ، والنصر على فرعون الذي أغرقه الله وجنوده في اليمِّ
في آية عظيمة من آيات الله .

فكلاً جزاه بإحسانه ، فناسب ذلك قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، فإن
زكريّا قتل بعد قتل ولده ، ويحيى قتل ، وعيسى أُريد قتلُه فرفعه الله
إليه ، فلا يناسب ذلك أن يقول فيهم : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ؛ لأن

(١) انظر : الكشاف (١ / ٢١٢) ، البحر المحيط (١ / ١٧٣) ، روح المعاني



معناه أنه يجازي المحسنين بالقتل والخوف ومحاولة القتل .
وأما إسماعيلُ واليسعُ ويونسُ ولوطُ فقد أكرمهم الله بالرسالة
والتفضيلِ على عالمي زمانهم ، ولم يعطهم ما أعطى الأولين من الملكِ
ونحوه .

ولم يصبهم ما أصاب مَنْ ذكرهم بعد الأولين من القتل والخوف ،
فذكر أنه فضّلهم على العالمين ، وهو أعلىّ وسامٍ .





قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ
أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

سؤال

ما هذه الهاء في (اقتده) ، وما دلالتها ؟

الجواب

هذه الهاء اسمها هاءُ السَّكْتِ ، ويؤتى بها عند الوقفِ ، وفي مثل
هذه المواضع يكون الإتيان بها جائزاً ، وقد جاءت هنا لغرضٍ لطيفٍ ،
فقد جاءت بعد ذكر عددٍ من الأنبياء منهم إبراهيم ، وإسحاق ،
ويعقوب ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ،
وهارون ، وزكريّا ، ويحيى ، وعيسى ، وغيرهم .

ثم قال بعد ذلك : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْتَدَهُ﴾
[٩٠] .

أي : اقتد بهدى هؤلاء حصراً ، وقفٌ عنده ، ولا تطلب هدى في
غير هداهم .



أي : اقتدِ بهدي هؤلاء حصراً ، وقِفْ عنده ، ولا تطلب هدياً في غير هداهم .

وقدم الجار والمجرور ؛ للدلالة على القصير ، وهو من لطيف البيان .

* * *



قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يُقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي وَيُنذِرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام : ١٣٠] .

وقال في سورة الزمير: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الزمير : ٧١] .

سؤال

لماذا قال في الأنعام: ﴿يُقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي﴾ وقال في الزمير: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ﴾؟

الجواب

إن سورة الأنعام جرى فيها ذكرُ قصصِ الماضين في مواضع كثيرة منها ، وفيها من التحذير ومواقع العبرة ما يكفي للتعاطف .

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي

الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿٦﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٠-١١﴾ .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنهَمُ نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٣٤﴾ .
أي : من أخبارهم وقصصهم .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا نَضَّرَعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢-٤٥﴾ .

ثم ذكر قصة إبراهيم وحيرته حتى اهتدى إلى خالقه في عشر آيات ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيهِ ءَا زَرَ اتَّخَذُوا آصْنَامًا ءَالِهَةً... ﴾ ﴿٧٤-٨٣﴾ .

وذكر مجموعة من الأنبياء قبل وبعد إبراهيم ، فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ... ﴾ .

إلى أن قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ... ﴾

ثم ذكر إشاراتٍ أخرى إلى أممٍ ورسلي سابقين .

فناسب ذكر القصص التي تستدعي الحذر والموعظة قوله تعالى :
﴿ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ .

وأما في سورة الزُّمَرِ فلم يأتِ شيءٌ من ذلك ، ولم تأتِ إشارةٌ إلى الأمم السابقة غير قوله : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَنْذَرْتَهُمْ الْوَعْدَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٢٥] فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ لِحِزْبِ الْأُخْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْأَخِرَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿ [٢٥ - ٢٦] .

ثم إنه ورد في سورة الزُّمَرِ من ذكر الكتاب وما يقتضي تلاوته الكثير ، فقد قال في أول سورة الزُّمَرِ : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [١] إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ فَاَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿ [١ - ٢] .

والكتاب إنما أنزل ليُتلى ويُتبع ما فيه .

وقال : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَنْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [٢٣] .

وذلك عند تلاوته أو سماع تلاوته .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ ﴾ [٢٧] قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ ﴿ [٢٧ - ٢٨] . وذلك يتبين من تلاوته .

وقال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۗ

وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِا ﴿٤١﴾ . وإنما أنزله ليتلوه عباده ، ويعملوا بما فيه ، ويتعظوا .

وقال : ﴿ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [٥٥] ، وذلك يكون بتلاوته ، والاطلاع على ما فيه .

حتى إنه ذكر الكتاب في مشهد من مشاهد القيامة ، فقال : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ ، والكتاب إنما جيء به ليطلع عليه من يطلع ، وذلك إنما يكون بتلاوة ما فيه .

ومما قيل في ذلك الكتاب : إنه صحائف الأعمال ، وقيل : إنه اللوح المحفوظ ، وقيل غير ذلك ، فناسب ذكر التلاوة في الزمر والقص في الأنعام ، والله أعلم .



قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذَّةً وَمَا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف : ١٨] .

وقال في سورة (ص) : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٤ - ٨٥] .

سؤال

لماذا قدّم في آية الأعراف من تبعه على ملء جهنم ، فقال : ﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وقدّم ملء جهنم على من تبعه في آية (ص) فقال : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ؟

الجواب

إن كلتا الآيتين في قصة آدم وإبليس في السورتين ، وقد تقدّم قبل هذه القصة في سورة (ص) الكلام على جهنم وعذابها ، وذلك من قوله : ﴿ هَذَا وَابْتِ لِّلطَّغْيِينِ لَشَرِّ مَثَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ إِلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [٥٥ - ٦٤] .

فلما تقدّم الكلام على جهنم قدّم ما يتعلق بها وهو ملء جهنم .
وأما في سورة الأعراف ، فقد تأخر ذكر جهنم وعذابها عن هذه
القصة ، فلما تأخر ذكر جهنم آخر ما يتعلق بها في القصة .

هذا أمر ، والأمر الآخر أنه تقدّم على القصة في الأعراف ذكر من
تبع إبليس ، ممن أهلكهم الله من أهل القرى ، فقال : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَانِنَا أَوْهَمَ قَائِلُونَ ﴾ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَانِنَا إِلَّا أَنْ
قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ . [٤ - ٥] .

وتقدّمها عتاب ربنا لأهل الأرض لقلّة شكرهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ
مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ [١٠] .

فكانه صدق عليهم إبليس ظنه ، فاتبعوه حين قال في قصة آدم في
هذه السورة : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [١٧] .

فناسب تقديم من اتبعوه في الأعراف من هذه الناحية أيضاً .

هذا إضافة إلى أن إبليس ذكر في الأعراف ما سيحتال لذرية آدم ؛
ليتبعوه أكثر مما ذكره في (ص) ، فقد قال :

١ - ﴿ لَا قَعْدَنَ لَكُمْ صِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ .

٢ - ﴿ ثُمَّ لَا تَبْتَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

٣ - ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ .

٤ - ﴿ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ ﴾ .

٥ - ﴿ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ .

٦ - ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] .

في حين قال في (ص) :

- ﴿ لَأَعْتَبُ بِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [٨٣ - ٨٢] ،

فلما أفاضَ فيما سيفعله ، ويحتال لذرية آدمَ في الأعرافِ ليتبعوه ، ناسبَ أن يقدمَ مَنْ تبعه من هذه الذُّريةِ ، بخلاف ما في (ص) التي لم تكن فيها مثلُ هذه المناسِبةِ ، فناسبَ كلُّ تعبيرٍ مكانه من كلِّ وجهٍ .

* * *



قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥ - ٥٦] .

وقال فيها: ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] .

وقال في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٣ - ٦٤] .

سؤال

لماذا ذكر الخوف في آيتي الأعراف ، فقال في الآية الأولى : ﴿ وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ وقال في الآية الثانية : ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ والخيفة هي الخوف ، ولم يذكر الخوف في آية الأنعام ، وإنما قال : ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ والخيفة نقيض الجهر ؟

الجواب

إن الدعاء والذكر المذكورين في آيتي الأعراف ، إنما هما في مقام

العبادة ، والخوف المذكور فيهما إنما هو الخوفُ من اللهِ دعاءً وذكرًا .
وأما آيةُ الأنعامِ فهي في مقامِ الخوفِ مما قد يحيطُ بالناسِ في
ظلماتِ البرِّ والبحرِ ، فلو ذكر الخوفَ لانصرف إلى هذه الأمورِ
المخوفةِ ، ولم ينصرف إلى الخوفِ من الله .

والخوفُ في مثلِ هذه المواطنِ مما يعتري النفسَ البشرية ، وهذا
ظاهرٌ معلومٌ ، وقد أوضحته الآيةُ وسياقها ، فقد ذكرَ تضرعهم وتذللهم
إليه سبحانه قائلين : ﴿ لَيْنَ أَنْجِنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ وطلبُ النجاةِ
إنما يكون من الأمورِ المخوفةِ .

وقال بعد ذلك : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ﴾ فسمَّى ذلك
كرباً ، فاتضح الفرق بين الموضوعين فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعه .



قال تعالى في سورة الأعرافِ في قصّة نوح: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف : ٦٤] .

وقال في سورة يونسَ في قصة نوح: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ حَتَفًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [يونس : ٧٣] .

سؤال

لماذا قال في سورة الأعرافِ : ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وقال في سورة يونس : ﴿وَمَنْ مَعَهُ﴾^(١) ؟

الجواب

من أوجهٍ منها :

١ - أن (الذين) اسمٌ موصولٌ مختصٌّ ، وهو يخصُّ جماعة

(١) أما السؤال عن نجينا وأنجيناه فقد ذكرناه في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) (ص ٧٢) .

الذكورِ العقلاء ، ولا يُطلق على المفردِ أو المشنئِ .

وأما (من) فإنه اسمٌ موصولٌ مشتركٌ ، يطلق على المفردِ والمثنئِ والجمعِ المذكرِ والمؤنثِ .

وأن سياقِ القصةِ في سورةِ يونسَ فيه إلماخٌ إلى أن قومه كبر عليهم تذكيره لهم بآياتِ ربهم ، وبقاؤه بينهم يبلغ دعوة ربّه ، وأن نوحاً تحدّاهم بأن يجمعوا أمرهم ، ويسعوا في إهلاكه ، وألا يمهلوه ، قال تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِسَائِتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [٧١] .

وليس الأمرُ في الأعرافِ كذلك ، وإنما هو تبليغٌ ودعوةٌ ، وقصارى ما قال فيه الملاء من قومه : ﴿ إِنَّا لَنُرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ، فردّ عليهم قائلاً : ﴿ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فلما كانتِ المواجهةُ في يونسَ أشدّ ، وأنه تحدّاهم أن يجمعوا أمرهم ، ويسعوا في إهلاكه ، وألا يمهلوه ، كان ذلك مدعاةً إلى قلةٍ من يؤمن له وأن يخاف من يخاف في مثل هذا الظرف العصيب .

فقال في هذا السياقِ : ﴿ فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ وهذا يحتمل في اللغة أن يكون معه شخصٌ أو شخصان ، وليس فيه تنصيصٌ على الجمعِ .

وأما في الأعرافِ فإن قوله : ﴿ فَانجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ تنصيصٌ على أن معه جماعة من المؤمنين له ، وليس شخصاً واحداً أو شخصين قطعاً ،

فناسبت حالة التحدي والمواجهة الشديدة أن يقول : (من) التي ليس فيها تنصيصٌ على الجمع .

وفي الحالة الأخرى أن يقول : (الذين) التي هي تنصيصٌ على أن المؤمنين له جماعةٌ ، وليس واحداً ؛ ذلك أن السياق لا يستدعي مثل حالة الخوف تلك ، ولا يستدعي قلة المؤمنين على النحو الذي في يونس .

٢ - إن القصة في الأعراف أطول مما في يونس ، فإنها في الأعراف ستُّ آياتٍ ، من الآية التاسعة والخمسين إلى الآية الرابعة والستين ، وهي في يونس ثلاثُ آياتٍ من الآية الحادية والسبعين إلى الآية الثالثة والسبعين .

وإن كلمة (الذين) أطول من (من) فناسب في مقام الإطالة أن يأتي بأطول الكلمتين .

٣ - وعلاوةً على ذلك فإن كلمة (من) في يونس أكثر مما في الأعراف .

وإن كلمة (الذين) في الأعراف أكثر مما في يونس ، فإن كلمة (من) وردت في يونس (٢٤) أربعاً وعشرين مرةً ، ووردت في الأعراف (١٨) ثماني عشر مرةً .

وأن كلمة (الذين) وردت في الأعراف (٤٧) سبعاً وأربعين مرةً ، ووردت في يونس (٢٨) ثمانياً وعشرين مرةً .

فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعه من حيث السُّمة التعبيرية لكلِّ سورة^(١) .
فاتضح أن كلَّ تعبيرٍ مناسب لموضعه الذي ورد فيه من كلِّ وجهٍ .

* * *

(١) انظر : موضوع (السمة التعبيرية للسياق) في كتابنا (التعبير القرآني) .



قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكَ ﴾
[الأعراف : ١٢٣] .

وقال في سورة طه [٧١] ، وفي سورة الشعراء [٤٩] : ﴿ قَالَ
ءَأَمِنْتُ لِمُوقَاتِلٍ أَنْ ءَاذَنَ لَكَ ﴾ .

سؤال

لماذا قال في سورة الأعراف : ﴿ ءَأَمِنْتُ بِهِ ﴾ وقال في سورتى طه ،
والشعراء : ﴿ ءَأَمِنْتُ لِمُوقَاتِلٍ ﴾ ؟

الجواب

إن معنى : ﴿ ءَأَمِنْتُ بِهِ ﴾ أي بالله تعالى .

و : ﴿ ءَأَمِنْتُ لِمُوقَاتِلٍ ﴾ أي : لموسى عليه السلام ، والمعنى : صدقتم
وأقرتكم له ، والسياق يوضح ذلك .

قال تعالى في الأعراف : ﴿ قَالُوا ءَأَمِنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ رَبِّ مُوسَى
وَهَارُونَ ﴿١٢٦﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ
لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ .

وقال في سورة طه : ﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧﴾ ﴾
 قَالَ ءَامَنَّا لَهُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ ، فقوله : ﴿ إِنَّهُ
 لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ يعني موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وقال في سورة الشعراء : ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ رَبِّ مُوسَى
 وَهَارُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ ءَامَنَّا لَهُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ .
 وهو نحو ما مر في طه .

وإذا رأيت الإيمان معدى باللام ، فاعلم أنه لغير الله فإنه لا يعديه
 مع الله إلا بالباء نحو قوله : ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤]
 وقوله : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وفي القرآن عدى (آمن) باللام مع الأشخاص غالباً ، وذلك نحو
 قوله : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : ٥٥] ، وقوله : ﴿ لَنْ
 نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ [التوبة : ٩٤] ، وقوله : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾
 [التوبة : ٦١] .

وربما استعمله مع غير الأشخاص نادراً ، وذلك نحو قوله : ﴿ وَلَنْ
 نُؤْمِنَ لِرُقَيْبِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴾ [الإسراء : ٩٣] .



قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ يَمْوسَىٰ إِنَّيٰ أَصْطَفَيْتَكَ عَلَىٰ النَّاسِ
بِرِسَالَتِي وِبِكَلِمَىٰ فَخِذْ مَا ءَاتَيْتَكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاجِ
مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخِذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا
بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ [الأعراف : ١٤٤ - ١٤٥] .

سؤال

لماذا قال في الآية الأولى: ﴿ فَخِذْ مَا ءَاتَيْتَكَ ﴾ ، وقال في الآية
التالية لها: ﴿ فَخِذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ فذكر القوة ولم يذكرها في الآية الأولى؟

الجواب

إن ذلك لعدة أمور منها :

١ - أن الآية الأولى في الإيتاء ، والثانية في الإيتاء والتبليغ ، فقد
أمره في الآية الثانية أن يأخذ ما آتاه بقوة ، ويبلغه قومه ، فقد قال له
فيها: ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ ، وهذا أمرٌ بالتبليغ ، والتبليغ
يحتاج إلى قوة وجهدٍ وعزيمة .

٢ - إنه طلب من قومه في الآية الثانية أن يأخذوا بأحسنها ، فإنه لم

يقول : (وأمر قومك يأخذوا بها) بل قال : ﴿ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ وهو أقوى من عموم الأخذ وأكد ، ذلك أن فيما آتاه حسناً وأحسن ، فأمرهم أن يأخذوا بالأحسن ، فإذا كان قومه مأمورين بما هو أقوى وأكد ، ناسب أن يكون هو كذلك ، فكان مأموراً أن يأخذها بقوة .

٣ - إن في الآية الثانية تفصيلاً ليس في الآية الأولى .

فإنه قال في الآية الأولى : ﴿ فَخَذْ مَا آتَيْتَكَ ﴾ ، فقال : ﴿ مَا آتَيْتَكَ ﴾ على الإجمال .

وفصل في الآية الثانية ما آتاه ، فقال : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

وأجمل في الطلب في الآية الأولى ، فقال : ﴿ فَخَذْ مَا آتَيْتَكَ ﴾ ، وفصل في الآية الثانية ما أجمله في الآية الأولى من الطلب ، فقال : ﴿ فَخَذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ .

فكما أجمل في ذكر ما آتاه في الآية الأولى أجمل في الأمر بأخذها ، وكما فصل في ذكر ما آتاه في الآية الثانية ، فصل وبين في الأمر بأخذها ، فناسب الإجمال الإجمال ، والتفصيل التفصيل .

٤ - ومما حسن ذلك أيضاً - إضافة إلى ما ذكرنا - أن الآية الأولى وردت عقب إفاقة موسى بعدما خرَّ صعقاً ، فقد جاءت الآية الأولى عقب قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَجَلَّى رَبُّهُ لِلْحَبْلِ جُعَلَهُ ذَكَاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٤٣] .

والإنسان بعدما يفيق من صعقة يصعقها يكون واهن القوى .

وقد ذكر قبل الآية الأولى أكثر من أمرٍ يدعو إلى وهن القوة ، فقد ذكر أنه ﴿ خَرَّ ﴾ أي : قد هوى وسقط ، والخرور مدعاة إلى الوهن .

وذكر أنه (صعق) أي غشي عليه ، ومعنى (صعق) في اللغة : غُشي عليه وذهب عقله^(١) ، وأن قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ دليل على الغشي^(٢) . والصعقُ مدعاة إلى وهن القوى .

فكلُّ من الخرورِ والصعقِ يدعو إلى الوهنِ فكيف إذا اجتمعا ؟

فلم يذكر الأخذ بالقوة بعد ذكر الإفاقة مباشرة ؛ إذ العادة أن يكون الإنسانُ واهناً في مثل هذا الوقت ، فأخره إلى ما بعد ذلك في الآية الثانية ، فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعه من كلِّ وجه ، والله أعلم .

* * *

(١) انظر : لسان العرب (صعق) (١٢ / ٦٦) .

(٢) انظر : لسان العرب (صعق) (١٢ / ٦٧) .



قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [٥٢] ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٥٣] كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنفال : ٥٢ - ٥٤] .

سؤال

١ - ما الفرق بين الدأبين المذكورين لآلِ فرعونَ في الآية الثانية والخمسين ، والآية الرابعة والخمسين ؟

٢ - لماذا قال في الآية الثانية والخمسين : ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، وقال في الآية الرابعة والخمسين : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ ؟

الجواب

١ - الدأبُ الأولُ هو مشابهتهم لهم في الكفرِ ، ذلك أنه سبق الآية الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ اتَّوَفَى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ

وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَ هُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ
 اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ
 اللَّهِ . . . ﴿ [٥٠ - ٥٢] .

فالدَّابُّ الأولُ هو مشابهتهم في الكفرِ والجري على عادتهم ،
 ألا ترى أنه قال : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ تَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ ﴾ ، ثم قال :
 ﴿ كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ .

أما الدَّابُّ الثاني فإنه مشابهتهم لهم في تغيير النعم والأحوال ، فقد
 قال قبل الآية الرابعة والخمسين : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى
 قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٥٣] ، ثم قال بعدها :
 ﴿ كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ .

قد تقول : وما التغييرُ الذي أحدثوه ، فإنهم كفارٌ على كلِّ حالٍ ،
 ولم يغيروا شيئاً ؟

فنقول : إنهم كانوا على حالٍ من الكفرِ ، حتى جاء موسى فدعاهم
 وأنذرهم ، وجاءهم بالآياتِ الدالة على صدقه ، فكذبوا بها فزادوا على
 ما هم عليه تكذيبهم بآياتِ الله ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾
 فعاجلهم العقوبة بالإغراق .

جاء في (البحر المحيط) : « وتغيير آلِ فرعونَ ومشركي مكة ،
 ومن يجري مجراهم بأن كانوا كفاراً ، ولم تكن لهم حالة مرضية ، فغيروا
 تلك الحالة المسخوطة إلى أسخط منها ، من تكذيبِ الرسلِ والمعاندةِ
 والتخريبِ وقتلِ الأنبياءِ والسعي في إبطالِ آياتِ الله ، فغيَّرَ اللهُ تعالى

ما كان أنعم عليهم به وعاجلهم ولم يمهلهم» (١) .

وجاء في (الكشاف) : « أي : دأبٌ هؤلاءٍ مثل دأبِ آلِ فرعونَ ، ودأبهم عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه ؛ أي داوموا عليه وواظبوا ، و(كفروا) تفسيراً لدأبِ آلِ فرعون . . .

﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ فَإِنِ قُلْتَ : فما كان من تغييرِ آلِ فرعونَ ومشركي مكة حتى غيّرَ اللهُ نعمته عليهم ، ولم تكن لهم حالٌ مرضيةٌ فيغيروها إلى حالٍ مسخوطةٍ ؟

قلت : كما تغيرت الحالُ المرضيةُ إلى المسخوطةِ تغيرتِ الحالُ المسخوطةُ إلى أسخط منها .

وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول ﷺ إليهم كفرَةً عبدةً أصنامٍ ، فلما بعث إليهم بالآياتِ البيناتِ ، فكذبوه وعادوه ، وتحزبوا عليه في إراقة دمه ، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت ، فغير اللهُ ما أنعم به عليهم من الإمهالِ وعاجلهم بالعذابِ» (٢) .

٢ - وأما الجوابُ عن السؤالِ الثاني فإنَّ كلَّ عقوبةٍ مناسبةٌ للحالةِ التي هم فيها ، فقد قال في الآيةِ الأولى : ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وقال في الأخرى : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْتَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ .

(١) البحرالمحيط (٤ / ٥٠٧) .

(٢) الكشاف (٢ / ٢٠) .

ذلك أن الكفرَ أعمُّ من التكذيبِ بآياتِ الله ، فقد يكون الكفرُ بالتكذيبِ وبغيره ، من نحو عبادةِ غيرِ الله ، والمعتقداتِ الباطلةِ ، وغير ذلك من نحو ما أخبر به ربُّنا في قوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة : ٧٣] ، وقوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ٧٢] ، وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

فالتكذيبُ بآياتِ اللهِ نوعٌ من أنواعِ الكفرِ .

فقال في عقوبةِ الكفرِ : ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وهو أمر عام يشمل عقوبات الدنيا والآخرة .

وقال في عقوبةِ التكذيبِ بالآياتِ : ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ ، وهذه حالةٌ من حالاتِ الأخذِ بالذنوبِ ، فقد يكون الأخذُ بالذنوبِ بالتعذيبِ والسجنِ والنارِ وغير ذلك .

فجعل عقوبةَ الكفرِ الذي هو عامٌ ، الأخذَ بالذنوبِ وهو عامٌ ، وجعل عقوبةَ التكذيبِ بالآياتِ الذي هو أخصُّ من الكفرِ بالإهلاكِ والإغراقِ ، وهو أخصُّ .

لهذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرى أن قوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ عقابٌ عامٌ قد يكون في الدنيا ، وقد يكون في الآخرةِ ، وقد يكون فيهما .

وأما قوله : ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ فإنه عقابٌ في الدنيا فهو أخصُّ من حيث الوقتِ ، فإن الإهلاكِ والإغراقِ إنما يكونان في

الدنيا وليساً من عقاب الآخرة ، فكانت عقوبة الكفر أعمّ من حيث النوع والوقت .

ومن الملاحظ أنه قال في الآية الرابعة والخمسين : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ فذكر الرب وأضافه إلى ضميرهم ، في حين قال في الآية الثانية والخمسين : ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ ذلك أنه قبل ذكر التكذيب بآيات ربهم ذكر نعمه عليهم ، فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ فناسب ذكر الرب ؛ لأن الرب هو المربي والمنعم ، جاء في (روح المعاني) : « وأشير بلفظ الربّ إلى أن ذلك التغيير كان بكفر نعمه تعالى لما فيه من الدلالة على أنه مربيهم المنعم عليهم »^(١) .

ثم إنه أضاف الربّ إلى ضميرهم ؛ ليبين قبح كفرهم ، فإنهم كفروا بآيات ربهم الذي أنعم عليهم ، فإنه من أقبح كفر النعم أن تكفر نعمة ربك ؛ الذي ربك وأنعم عليك ، فذلك أدل على قبح كفرهم .
هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ذكر مرة لفظ الجلالة (الله) ، ومرة ذكر الربّ ؛ ليدل على أن الرب هو الله وليس شيئاً آخر .

* * *

(١) روح المعاني (١٠ / ٢٠) .



قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس : ١٩] ، وقال في سورة هود: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود : ١١٠] ، وقال في سورة فصلت: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [فصلت : ٤٥] ، وقال في سورة الشورى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى : ١٤] .

سؤال

لماذا قال في آية الشورى: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولم يقل مثل ذلك في بقية الآيات؟

الجواب

إن الآيات في يونس وهود وفصلت إنما هي في أمة واحدة ، والقضاء يمكن أن يكون بينهم عاجلاً أو آجلاً .

أما آية الشورى فهي في أمم مختلفة أكثرها هالك ، فلا يمكن القضاء بينهم في الدنيا ، وإنما يقضى بينهم في الآخرة ، وهو الأجل المسمى لذلك .

وإيضاح ذلك أنه قال في يونس : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فهي أمة واحدة اختلفت ، والقضاء بينهم ممكن ؛ لأنهم أمة واحدة مختلفة .

وقال في هود : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ ، وهذه الآية في بني إسرائيل حين اختلفوا في الكتاب ، والقضاء بينهم ممكن في الحياة الدنيا ، ونحوها آية فصلت فإنها تطابق آية هود ، قال تعالى في فصلت : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ .

وأما آية الشورى فهي في سياق أمم مختلفة متعاقبة ، منها أمم مندثرة هالكة ، فكيف يكون القضاء بينها في غير اليوم الآخر وهو الأجل المسمى ؟ قال تعالى : ﴿ ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [١٣ - ١٤] . فناسب كل تعبير مكانه .



قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَأَمَّا نُرْيَتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس : ٤٦] .

وقال في سورة غافر: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا نُرْيَتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ [غافر : ٧٧] .

وقال في سورة الرعد: ﴿وَإِنَّمَا نُرْيَتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد : ٤٠] .

سؤال

لماذا رُسمت ﴿وَأَمَّا﴾ في آيتي يونس وغافر متصلة ، ورُسمت في آية الرعد: ﴿وَإِنَّمَا﴾ منفصلة مع أنها كلها في هذه الآيات إنما هي (إن) الشرطية مع (ما) الزائدة المؤكدة ؟

الجواب

إن هذا من أمورِ رسمِ المصحفِ ، ورسم المصحفِ لا يُقاس عليه ، ولكن مع ذلك قد يبدو أن لهذا الاختلافِ تعليلاً ، ولا ندرى إن كان مقصوداً أم لا .

فنقول : إن السياق في آية يونسَ وغافرٍ إنما هو في الكلام على الآخرة ، والآيتان تذكران الرجوعَ إلى الله ، فقد قال في آية يونسَ : ﴿فَالْتَيْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ وقال في آية غافرَ : ﴿فَالْتَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ ، وهذا الرجوعُ في الآيتين إنما هو في الآخرة .

قال تعالى في يونسَ : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِهِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥) وَإِنَّمَا نُرِيكَ بِبَعْضِ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَنوَفِّتِكَ فَالْتَيْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِكْمَالُ أَمْرِهِ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ .

فقوله : ﴿فَالْتَيْنَا مَرْجِعَهُمْ﴾ يعني في يوم القيامة ، وهو متصل بما ذكره من أمور الآخرة ، وواقع فيه .

وقال في غافر : ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠) إِذِ الْأَغْطَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنزِلْ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَمَا نُرِيكَ بِبَعْضِ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَنوَفِّتِكَ فَالْتَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ .

فالكلامُ كما ترى في سياق عذاب الآخرة ، وقد وقعت الآية في هذا السياق ، فإن قوله : ﴿فَالْتَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يعني في الآخرة ، وهو متصل بما ذكره من أمور الآخرة .

وأما السياق في الرعد فهو في الدنيا ، فقد جاء قبل الآية قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ مَا نُرِيدُكَ . . . ﴿ الآية [٣٧ - ٤٠] .

وجاء بعدها قوله : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [٤١] .

فقوله : ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ إنما هو في الآخرة ، فهو يذكر أمراً سيقع في الآخرة ، والكلام إنما هو على الدنيا بخلاف آيتي يونس وغافر ، فإنهما في سياق الآخرة .

فُصِلَتْ (ما) عن (إن) في الرعد إشارة إلى الفصل بين الأحداث ، فالكلام على الدنيا ، والحساب إنما هو في الآخرة .

ووصلت (ما) ب : (إن) في آيتي يونس وغافر ، إشارة إلى أن الأحداث متصلة ببعضها ، والله أعلم .



قال في سورة يونس: ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي
الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] .

وقال في سورة القمر: ﴿ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾
[القمر : ٥] .

سؤال

لماذا رُسم الفعل (تغني) في آية يونس بالياء ، ورُسم في آية القمر
من دون ياء أي : (تغن) ؟

الجواب

إن رسم المصحف لا يُقاس عليه كما هو معلومٌ ، ومع ذلك فإنه
يبدو أن هذا الاختلاف في الرسم له دلالة .

فلقد زاد في آية يونس على ما في القمر ، فقد قال في القمر: ﴿ فَمَا
تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ ، وقال في يونس: ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ ﴾ فزاد الآيات
على النذرٍ فراد في الرسم تبعاً لذلك .

ثم إنه عندما تزيد دواعي الإغناء ينبغي أن يزيد الإغناء ، فلما زادت



الدواعي في يونس انبغى أن يزيد الإغناء .

ولما نقصت الدواعي في القمرِ نقص شيءٌ من الحدثِ تبعاً لذلك ،
فنقص من الرسمِ في القمرِ مناسبةً لنقصِ الدواعي ، والله أعلمُ .





قال تعالى في سورة هود: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [هود : ٢٠] .

وقال في سورة الشورى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى : ٣١] .

سؤال

لماذا قال في هود: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ وقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فجاء بالفعل الماضي ، وقال في سورة الشورى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ وقال: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ بأسلوب الخطاب للحاضر؟

الجواب

إن الكلام في هود إنما هو في الآخرة ، وهو يدور على أحداثٍ ماضية كانت في الدنيا ، فقد قال: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [١٨] ،

فاقتضى ذكرُ الفعلِ الماضي ، وأما الخطابُ في الشورى فهو في الدنيا ،
قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ
كَثِيرٍ ﴾ [٣٠] . فاقتضى كل منهما ما ذكر في موضعه .

* * *



قال تعالى في سورة هود: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] .

السؤال الأول

ما المقصود بـ : (أهلك) أ هم الأهل ، أم هو فعلٌ ماضي من الإهلاك ؟

الجواب

إن المقصود بـ : (أهلك) هم الأهل ، وليس فعلاً ماضياً ، ويدلُّ على ذلك أمورٌ منها :

١ - أن الإهلاك لم يحصل بعد ، وأن المؤمنين لم يركبوا بعد في السفينة ، فإنه قال بعد هذه الآية : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجْرِيهَا وَمُرْسَتْهَا ﴾ [٤١] .

٢ - لو كان (أهلك) فعلاً ماضياً لكان الاستثناء مفرغاً ، أي : إن المستثنى منه غيرٌ مذكور ، والاستثناء المفرغ إنما يكون في النفي

وشبهه ، ولا يقع في الإثبات إلا نادراً ، والفعل في الآية مثبتٌ فلا يترجح أنه فعل .

٣ - ومما يدلُّ على أن المقصود بـ : (أهلك) هم الأهل ، قوله تعالى في سورة (المؤمنون) : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ [٢٧] فإن الضمير في (منهم) يعودُ على الأهل .

٤ - لو كان المقصودُ بـ : (أهلك) الفعل لكان الناجون جماعتين :

أ - مَنْ سبق عليه القولُ .

ب - وَمَنْ آمَن .

وهذا يقتضي أن مَنْ سبقَ عليه القولُ ليسوا ممن آمن ، ومع ذلك فقد نجا ، وهذا لا يصحُّ .

٥ - المجيء بـ : (على) مع الفعل (سبق) يدلُّ على أن المقصود بمن سبق عليه القول أنه معذبٌ ، كقوله تعالى : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ و : ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ﴾ ونحو ذلك .

بخلاف استعماله مع اللام فإنه بشرى بالحسنى ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [١٧] إنهم لهم الْمَنْصُورُونَ ﴿ [الصافات : ١٧١ - ١٧٢] .

السؤال الثاني

قال في هذه الآية - آية هودٍ - : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنٌ ﴾ ، وقال في آية (المؤمنون) : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ فذكر في آية (المؤمنون) (منهم) ولم يذكر ذلك في آية هودٍ ، فما سبب ذلك ؟

الجواب

إن القصة في سورة هود مبنية على العموم في أكثر من جانبٍ من جوانبها ، أما القصة في سورة (المؤمنون) فمبنية على الخصوص ، ومما يوضح ذلك :

١ - قوله في هودٍ : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ ، وقوله في (المؤمنون) : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ وما في هودٍ أعمُّ مما في (المؤمنون) فإنه لم يقل (منهم) .

٢ - أنه قال في هودٍ : ﴿ وَمَنْ ءَامَنٌ ﴾ فزاد على الأهل : ﴿ وَمَنْ ءَامَنٌ ﴾ ولم يذكر ذلك في (المؤمنون) .

ولا شك أن ما في هودٍ أعمُّ فإنه زاد على الأهل من آمن .

٣ - أنه قال في هودٍ : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ [٤٣] ، ولهذا يفيد العموم فإنه استغرق نفي العاصم إلا من رحم الله ، وذلك أنه نفى ب : (لا) النافية للجنس ، ولم يقل مثل ذلك في (المؤمنون) .

٤ - قال في هود : ﴿ قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾ [٤٨] . وقال في (المؤمنون) : ﴿ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [٢٩] .

فإنه في هود زاد السلام على البركات ، ولم يذكر ذلك في (المؤمنون) ، وقال في هود : ﴿ وَبَرَكَاتٍ ﴾ وهو جمعُ بركة ، في حين قال في (المؤمنون) : ﴿ مُنَزَلاً مُّبَارَكاً ﴾ بالافراد .

وقال في هود : ﴿ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾ ، ولم يقل مثل ذلك في (المؤمنون) ، وإنما دعا لنفسه : ﴿ أَنْزِلْنِي ﴾ .

* * *



قال تعالى في سورة هود في قصة عاد: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود : ٦٠] .

وقال في سورة هود أيضاً في قوم فرعون : ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود : ٩٩] .

سؤال

لماذا قال في عاد : ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فذكر (الدنيا) ، وقال في قوم فرعون : ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ ولم يذكر الدنيا ، مع أن المقصود بالإشارة هي الدنيا ؟

الجواب

١ - إن قصة عاد في السورة أطول من قصة موسى وفرعون ، فقصة عاد إحدى عشرة آية ، تبدأ من الآية الخمسين إلى الآية الستين ، وأما قصة موسى فهي أربع آيات من الآية السادسة والتسعين إلى الآية التاسعة والتسعين .

فناسب ذكر (الدنيا) مقام الإطالة والتبسط في قصة عاد ، وناسب

عدم ذكرها والاكتفاء بالإشارة إليها في مقام الإيجاز .

٢ - ذكر في قصة عادٍ أموراً تتعلق بالدنيا ، منها أنه قال فيها :
﴿ وَيَقَوْمٍ أَستَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ [٥٢] ، فقد ذكر في هذه الآية أمرين مهمين
من أمور الدنيا :

أحدهما : سعة الرزق ، وبه تقوم الحياة ، وهو قوله : ﴿ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ .

والآخر : زيادة القوة ، وبه استمرار الحياة الكريمة ، وهو قوله :
﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ ولم يذكر أمرًا يتعلق بالدنيا في قصة موسى .
فناسب ذكر الدنيا والإشارة إليها في قصة عادٍ ، وعدم ذكرها
والاكتفاء بالإشارة إليها في قصة موسى من هذه الجهة أيضاً .

٣ - أشار إلى العذاب الذي أحاط بعادٍ ، ونجاة هودٍ ومن آمن معه
في الدنيا ، فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [٥٨] .

ولم يُشر إلى عذابٍ أو عقوبة أحاطت بفرعون وملئه في الدنيا ،
فناسب من جهة أخرى ذكر (الدنيا) ، والإشارة إليها في قصة عادٍ ،
والاكتفاء بالإشارة إليها في قصة موسى .

٤ - ذكر العذاب الذي سيصيب فرعون وقومه يوم القيامة ، فقال :
﴿ يَفْقَهُمْ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْسِفُ آلَؤُرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ [٩٨] ، ولم
يذكر شيئاً عن عذابٍ سيصيب عاداً يوم القيامة .



فناسب من جهة أخرى ذكر الدنيا في قصة عادٍ ، وعدم ذكرها والاكتفاء بالإشارة إليها في قصة فرعون .

ويحسن أن نذكر من جهة أخرى أنه اختلف التعقيب بعد كل قصة بما يناسب المقام ، فقد قال تعقياً على قصة عادٍ : ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، وقال تعقياً على قصة فرعونَ : ﴿ يَتَّخِذُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَبْسُ الرِّدُّ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [٩٨ - ٩٩] ، فلم يزد على قوله : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ في قصة عادٍ ؛ لأنه لم يذكر فيها أمراً يتعلق بيوم القيامة .

وقال في قصة فرعون بعد ذكر العذاب : ﴿ وَيَبْسُ الرِّدُّ الْمَوْرُودُ ﴾ ثم قال بعد قوله : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ : ﴿ يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ ، فكان كلُّ تعبيرٍ أنسب بالموضع الذي ورد فيه .





قال تعالى في سورة هود في قوم صالح : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ [هود : ٦٧] .

وقال في السورة نفسها في مدين قوم شعيب : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ [هود : ٩٤] .

سؤال

لماذا قال في قوم صالح : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ بتذكير الفعل (أخذ) ، وقال في قوم شعيب : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ بالتأنيث مع أن الفاعل واحد ، والفصل بين الفعل والفاعل واحد ؟

الجواب

من المعلوم أنه يجوز في نحو هذا تذكير الفعل وتأنيثه ؛ لأن الفاعل غير حقيقي التأنيث ، وأما اختيار التذكير والتأنيث في كل موضع فله أكثر من سبب منها :

١ - أنه قيل : إنه أخبر عن قوم شعيب بثلاثة أنواع من العذاب كلها مؤنثة الألفاظ ، وهي : الرجفة ، والصيحة ، والظلة ، فناسب ذلك

التأنيث في أهل مدين ، جاء في (درة التنزيل) : « هل لتخصيص قصة شعيب ب : (أخذت) فائدة ليست لها في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟

الجواب عن هذا الموضوع هو أن يقال : إن الله أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ بثلاثة ألفاظٍ منها : (الرجفة) في سورة الأعراف في قوله : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِن آتَيْتُم شُعَيْبًا إِتْكَرُوا إِذَا الْخَيْرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَان لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [٩٠ - ٩٢] .

وذكر ذلك قبله في مكانٍ آخر .

ومنها (الصيحة) في سورة هود في قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٤﴾ كَان لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ نَمُودٌ ﴾ [٩٤ - ٩٥] .

ومنها : (الظلة) في سورة الشعراء في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُم عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ [١٨٩] .

فلما اجتمعت ثلاثة أشياء مؤنثة الألفاظ في العبارة عن العذاب الذي أهلكوا به غلب التأنيث في هذا المكان على المكان الذي لم تتوال فيه هذه المؤنثات ، فلذلك جاء في قصة شعيب : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ ^(١) .

وهذا الكلام فيه نظر .

والصوابُ : أن مدين ذكر سبحانه عنهم أنهم أخذتهم الصَّيْحَةُ ،
وأنهم أخذتهم الرجفةُ ، وأما عذاب يوم الظلَّةِ ، فإنه لم يُصَبْ مدينَ ،
وإنما أصاب أصحاب الأيكة ، قال تعالى فيهم : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ
الْظُلَّةِ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] . وكلاهما أرسل إليهما شعيبٌ ، هذا من
ناحية .

ومن ناحية أخرى أن (الرجفة) أخذت قوم صالح أيضاً ، قال تعالى
فيهم : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ ﴾ [الأعراف : ٧٨] ، فهذا التعليلُ فيه نظرٌ .

٢ - إنه عبَّر عن عذاب قوم صالح بالخزي ، فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾
[هود : ٦٦] .

والخزيُّ مذكورٌ ، فناسب التذكيرُ في قوم صالح^(١) .

قد تقول : إنه قال في قصة مدينَ : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ ﴾ [٩٣] ، والعذاب مذكورٌ .

فنقول : إنه ذكر العذاب أيضاً في قصة ثمودَ ، فقال : ﴿ فَيَأْخُذْكُمْ
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [٦٤] ، وذكر الخزيَ علاوةً على ذلك فناسب التذكيرَ في
قوم صالح .

٣ - إن التعقيبَ على قوم صالح وعقابهم أشد مما ذكره في قوم
شعيبٍ ، فقد قال في قوم صالح : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ

(١) انظر : كتابنا (معاني النحو) (٢ / ٤٨٥ - ٤٨٨) (باب الفاعل) .

ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنْكَ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمًا ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا إِنَّ شُؤْدًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨-٦٦﴾ .

وقال في قوم شعيب : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمًا ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَنِينَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ . ومن النظر في النصين يتبين لنا ما يأتي :

أ - أنه قال في قوم صالح : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .

وقال في مدين : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .

والفاء تفيد التعقيب ؛ ذلك أنه قال على لسان نبيها صالح : ﴿ فَيَاخُذُكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [٦٤] .

فناسب التوعّد بالعذاب القريب ذكر الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب ، ثم إن نبيهم توعّدهم بعد عقر الناقة بالعذاب بعد ثلاثة أيام ، فلما انقضت الأيام الثلاثة حلّ بهم العذاب ، فناسب ذلك أيضاً ذكر الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب ، وليس الأمر كذلك في مدين ، فناسب فيها ذكر الواو .

ب - إنه ذكر الخزي في عقوبة قوم صالح ، فقال : ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ ولم يذكر ذلك في قوم شعيب .

ج - وذكر قوة الله وعزته تعقياً على هلاك قوم صالح ، فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ ، ولم يذكر مثل ذلك في قوم شعيب .

د - وقال في قوم صالح : ﴿ أَلَا إِنَّ نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ ، ولم يقل مثل ذلك في قوم شعيب .

فاتضح أن التعقيب على قوم صالح كان أشد ، فجاء في عقوبتهم بلفظ التذكير ، فقال : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ ؛ لأن المذكر أقوى من المؤنث .

وقد ذكرنا في تذكير وتأنيث لفظ الملائكة أنه إذا كان ثمة أمر أشد من آخر ؛ كأن يكونا موقفي عذاب أحدهما أشد من الآخر ، جيء بما هو أشد بالتذكير للدلالة على قوة الأمر وشدته ، فناسب التذكير قوم صالح ، والتأنيث قوم شعيب .

٤ - وعلاوة على كل ذلك ؛ فإن قصة قوم شعيب في هذه السورة أطول من قصة قوم صالح ، فإن قصة قوم صالح ثماني آيات ، من الآية الحادية والستين إلى الآية الثامنة والستين .

وإن قصة مدين اثنتا عشرة آية من الآية الرابعة والثمانين إلى الآية الخامسة والتسعين ، وإن كلمة (أخذت) أطول من (أخذ) فناسبت الكلمة الطويلة طول القصة من جهة أخرى .

٥ - وردت كلمة (العذاب) في قوم صالح في القرآن الكريم أكثر مما وردت في مدين ، فإنها وردت في قوم صالح سبع مرات وهي :

قوله تعالى : ﴿ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

وقوله : ﴿ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود : ٦٤] .

وقوله : ﴿ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٥٦] .

وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ [الشعراء : ١٥٨] .

وقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ أَلْعَابِ الْهُونِ ﴾ [فصلت : ١٧] .

وقوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ [القمر : ٣٠] .

وقوله في عادٍ وثمودَ وفرعونَ : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾

[الفجر : ١٣] .

ووردت في أهلِ مدينَ مرةً واحدةً ، وذلك قوله تعالى : ﴿ سَوْفَ

تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ [هود : ٩٣] .

وإن من معاني (الصيحة) في اللغة (العذاب)^(١) ، فذكر الصيحة

في قومٍ صالحٍ ، إشارةً إلى معنى العذابِ ، ومناسبةً لذكره الذي تكرر فيهم ، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى قومٍ شعيبٍ أهل مدين ، فجاء بالفعل على لفظ الصيحة وهو التأييث .

٦ - وأما قوله تعالى تعقياً على قوم شعيبٍ : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا

بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ فذلك لأن طبيعة العذابِ واحدةٌ في القومين ، فكلاهما

أهلك بالصيحة ، فشبّه هلاك مدين بهلاكِ ثمودَ ، والله أعلم .

* * *

(١) انظر : لسان العرب (صبح) (٣ / ٣٥٣) .



قال تعالى في سورة يوسف: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾
[يوسف : ٢] .

وقال في سورة الزخرف: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾
[الزخرف : ٣] .

سؤال

لماذا ذكر الإنزال في آية يوسف والجعل في الزخرف ؟

الجواب

لقد ذكر الإنزال في آية يوسف ؛ لأنه ذكر ما يتعلق بالإنزال ، وهو قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [٣-٧] ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِفِينَ ﴾ [٧ - ٣] .

فقد ذكر أن ربه يقصُّ عليه أحسن القصص ، وأنه أوحى إليه هذا القرآن ، وأن هذه القصة جوابٌ للسائلين عنها ، ومعنى ذلك أنه أنزله إليه .

وسورة يوسف هي في عمومها سرّد لقصة يوسف ؛ التي سُئل عنها رسول الله ﷺ ، فقد ذكر في أسباب نزولها أن جماعة من اليهود سألوا رسول الله ﷺ أن يحدثهم بأمر يعقوب وولده ، وشأن يوسف وما انتهى إليه .

وقيل : إن جماعة من اليهود وجهوا إلى رسول الله ﷺ من أهل المدينة من يسأله عن رجل من الأنبياء كان بالشام ، أخرج ابنه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمي . ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء فأنزل الله سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة^(١) .

وقد قال سبحانه في آخر القصة : ﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [١٠٢] .

فقد ذكر سبحانه أن هذا من أنباء الغيب ، فدل ذلك على أن هذا الكتاب إنما هو إنزال من عند الله ؛ لأن قومه لا يعلمون عن هذه القصة شيئاً ، فناسب ذلك ذكر الإنزال .

أما في آية الزخرف فلم يذكر الإنزال ، وإنما ذكر الجعل ؛ لأنه لم يذكر ما يتعلق بالإنزال ، فقد قال بعدها : ﴿ وَإِنَّكُمْ فِي أُمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَىٰ حَكِيمٌ ﴾ [٤] ، ففي قوله : ﴿ فِي أُمْرِ الْكِتَابِ ﴾ و ﴿ لَدَيْنَا ﴾ و ﴿ لَعَلَىٰ ﴾

(١) انظر : روح المعاني (١٢ / ١٧٠) ، فتح القدير (٦ / ٣) .

دلالةً على أن الكلام ليس على الإنزال ، وإنما على ما هو في الأعلى ، فلم يذكر الإنزال .

ثم إنه تردد لفظ الجعل في السورة عدة مرات ، من نحو قوله :
 ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [١٠] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ [١٥] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ [١٩] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾ [٦٠] ، وغيره ، فناسب ذكر الجعل فيها .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن لفظ (الجعل) ورد في الزخرف أكثر مما في سورة يوسف ، فقد ورد في الزخرف (١١) إحدى عشرة مرة ، وورد في سورة يوسف (٤) أربع مرات .

وإن الإنزال ومشتقاته ورد في يوسف (٣) ثلاث مرات ، وورد في الزخرف مرة واحدة ، فناسب ذكر الجعل في الزخرف والإنزال في يوسف من جهة أخرى .

جاء في (ملاك التأويل) في سبب الاختلاف بين هاتين الآيتين : « أن آية سورة يوسف لما كانت توطئة لذكر قصصه عليه الصلاة والسلام . . . ومستوفياً ما كان أهل الكتاب يظنون أنهم انفردوا بعلمه ، فأنزل الله هذه السورة موفيةً من ذلك أتمه ومعرفةً من قصصه العجيب ، ومؤديةً أكمله وأعمه ، ولا أنسب عبارة من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ليعلم العرب وأهل الكتاب أن ذلك منزلٌ من عند الله تعالى . . .



وليقطع العربُ والجميعُ أن محمداً ﷺ لم يتلقَ ذلك القصص من أحدٍ من العربِ إذ لم يكن عندهم من نبا ، ولا رحل في تعرُّفه إلى أحدٍ ، فكان قصصاً وآيةً مُعلِّماً بصحة رسالته ﷺ وعظيم تلك العناية ، فالتعبيرُ بالإنزالِ هنا بيِّنٌ .

وأما آيةُ الزخرفِ ، فلم تُبْنِ على إخبارٍ ، بل أعقت بآي الاعتبارِ واللفظِ والتنبيهِ والتذكاريِّ^(١) .



(١) ملاك التأويل (٢ / ٥٣٦ - ٥٣٧) .



يقول الله سبحانه في سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

بإسناد الفعل (يسجد) إلى: (من) التي هي للعاقل في الآيتين .

وقال في آية أخرى: ﴿أُولَئِكَ يَرْوُونَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يُنْفِثُونَ ظُلْمًا عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٤٩] ، بإسناد الفعل (يسجد) إلى (ما) فما السبب؟

الجواب

قال تعالى في آية الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ ، والطَّوع والكره من صفات العقلاء ؛ إذ العاقل هو الذي يختار

الفعل طوعاً أو يُستكره عليه ، فناسب إسنادُ السجودِ إلى (مَنْ) التي هي للعاقل .

وأما آية الحجِّ فإنها في سياقِ العقلاء ، فقد قال قبلها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالصَّرِيَّ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [١٧] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ . . . ﴿ الآية .

فناسب إسنادُ السجودِ إلى (مَنْ) أيضاً .

وأما آية النحلِ فإنها ذُكرت في سياقِ العموم ، فقد جاء قبل الآية قوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ يَرْوُونَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يُنْفِتُونَ ظُلْمَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [١٥] وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . . . ﴿ الآية ، فقد قال : ﴿ أُولَئِكَ يَرْوُونَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وكلمة (شيء) تدلُّ على العموم من عاقلٍ وغيره ، لهذا من جهة .

ومن جهةٍ أخرى أنه قال في الآية : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ فبين الساجدين بقوله : (مِنْ دابة) ، وكلمة (دابة) عامةٌ ، واستعمالها في غيرِ العاقلِ هو الغالبُ ، فناسب إسنادُ الفعلِ إلى (ما) من جهتين :

الأولى : العمومُ في (شيء) .

والأخرى : العمومُ وغلبة غيرِ العاقلِ في (دابة) .

(ما) كما هو معلومٌ أعمُّ من (مَنْ) ، وما تدلُّ عليه أكثر مما تدلُّ عليه (مَنْ) .

فإن (مَنْ) خاصةً بذواتِ العقلاء ، وأما (ما) فهي تدل على ذواتِ ما لا يعقل وعلى صفاتِ العقلاء .

فالأول نحو قولك : (آكلُ ما تأكلُ وأركبُ ما تركبُ) ، قال تعالى : ﴿ يَا كُلُّ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَشَرِبَ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣٣] .

والثاني : نحو قولك (ما زيد ؟) فتقول : تاجرٌ أو كاتبٌ ، ونحو قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴾ [الشمس : ٧] ، والذي سَوَّاهَا هو الله ، وقوله : ﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٣] ، فاتضح أن ما تدل عليه (ما) أعمُّ وأكثر مما تدل عليه (من) ، فذوات غيرِ العاقلِ أكثر من ذواتِ العقلاء ، فكيف إذا أُضيف إليهم صفاتُ العقلاء ؟

فناسب العمومُ كلمة (ما) في آيةِ النحلِ إضافةً إلى ما بيَّن به (ما) من غيرِ العاقل ، أو ما غلب فيه ذلك ، وهو قوله : (من دابةٍ) فناسب ذلك : (ما) أيضاً .

ومن اللطيفِ أن نذكر ههنا أن الله سبحانه إذا أسندَ السجودَ إلى (مَنْ) أتبعه بذكرِ غيرِ العاقلِ ، وإذا أسنده إلى (ما) أتبعه بذكرِ العاقلِ .

فقد قال في آيةِ الرعدِ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ثم عطف عليه بقوله : ﴿ وَظِلَّائِهِمْ ﴾ والظلالُ غيرِ عاقلةٍ .

وقال في آيةِ الحجِّ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ، وعطف عليه الشمسَ والقمرَ والنجومَ ونحوها .

وقال في آيةِ النحلِ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ وعطف عليه

الملائكة ، حتى إنه فعل ذلك مع فعلِ التسبيح في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخِجُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ ﴾ [النور : ٤١] ، فعطف (الطير) على : ﴿ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ .

وقد تقول : ولم قال في آية الحج : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ وهم داخلون فيمن قبلهم ؟
والجوابُ من أكثر من وجه :

فقد يكون ذلك من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ ، فإن قوله : ﴿ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ لا يخصُّ الناسَ وحدهم ، بل قد يكونون من الناسِ أو من غيرهم من الجنِّ أو عباد الله الآخرين الذين لا نعلمهم .

وعطفُ الخاصِّ على العامِّ غير عزيزٍ في اللغة ، قال تعالى : ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى ﴾ [البقرة : ٢٣٨] .

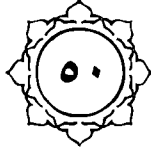
والصلاة الوسطى من الصَّلواتِ ، وقال : ﴿ فِيهِمَا فَكِّهَةٌ وَنَخْلٌ وَرِمَانٌ ﴾ [الرحمن : ٦٨] ، والنخلُ والرمانُ فاكهةٌ .

أو إن السُّجودَ الأولَ بمعنى السجودِ العامِّ ، وهو التَّسخيرُ والانقيادُ لله والخضوع له ، وهذا لا يخصُّ الإنسان ، بل يعمُّ الجميعَ من عاقلٍ أو غيره ، وهو ليس عبادةً بالنسبة إلى المكلفين ، وإن السجودَ الثاني سجودُ طاعةٍ واختيارٍ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ .

وقد يقوِّي هذا الاحتمال أنه ذكر قبل الآية أصنافاً من الناس ، مَنْ يسجد لله سجودَ طاعةٍ وكثيراً حقَّ عليه العذابُ ، وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالصَّخْرِيَّ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
 إِتَّكَ اللَّهُ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ ، فالمجوسُ والذين أشركوا وقسمٌ من
 الصابئين لا يسجدون لله سجودَ طاعةٍ واختيارٍ ، فقد يكون من بين هؤلاء
 مَنْ يعبد النارَ ، أو يعبد النجومَ ، أو غير ذلك من المعبوداتِ .
 فناسب أن يقول : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ .

* * *



قال تعالى في سورة الحجر: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] .

سؤال

لِمَ قرئت (رُبَّمَا) بتخفيفِ الباءِ ؟

الجواب

إن (ربما) قرئت بالتخفيفِ والتشديدِ ، وكلتا القراءتين سبعة متواترة .

أما الإجابة عن التخفيفِ والتشديدِ فإن التخفيف قد يكون لتخفيفِ معنى الحرفِ ، وإن التشديدَ أكد في معنى الحرفِ ، وذلك نظيرُ نونِ التوكيدِ الثقيلةِ والخفيفةِ ، فإن الثقيلةَ أكد من الخفيفةِ ، ونظير (إن) الثقيلةِ والمخففةِ فإن الثقيلةَ أكد من المخففةِ ، و(رب) المثقلةَ أكد في معنى الحرفِ من المخففةِ ، فإن تكرار الباءِ لزيادةِ المعنى .

و(رب) تكونُ للتكثيرِ كقوله ﷺ : « أَلَا رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، وتكونُ للتقليلِ ، كقول الشاعر :

أَلَا رَبَّ مَوْلُودٍ وَلَيْسَ لَهُ أَبٌ وَذِي وَلَدٍ لَمْ يَلِدْهُ أَبْوَان
 إن الرغبة في الدخول في الإسلام التي ذكرتها الآية تختلف بحسب
 المواطن والأشخاص ، فقد تقوى في مواطنٍ وتخفَّ في مواطنٍ ، وقد
 تقوى عند أشخاصٍ وتخف عند آخرين ، فقد قيل : إن ذلك في الدنيا
 عندما رأوا الغلبة للمسلمين في بدر^(١) أو غيرها .

وفي مثل هذا المواطن يتمنى قسمٌ من الناس أن لو كانوا مسلمين ؛
 ليحصلوا على غنائمٍ ، وتختلف هذه الرغبة باختلاف الأشخاص ، فقد
 تكون قويةً عند أشخاصٍ ، وقد تكون خفيفةً عند آخرين .

وقيل : إن ذلك يكون في القيامة ، ولا شك أن تلك الرغبة ستكون
 قويةً جدًا ، وأنهم كانوا يتمنون أن لو كانوا مسلمين .

فالتمني في أن لو كانوا مسلمين يختلف قوةً وشدةً بحسب
 المواطن ، وبحسب الأشخاص ، فقد يكون قويًا جدًا في موطنٍ ما ،
 فذلك المعنى يحققه التشديد ، وقد يكون أخفَّ في موطنٍ آخر فذلك
 ما يحققه التخفيف ، فاقضى ذلك القراءتين كليهما .

* * *

(١) انظر : روح المعاني (١٤ / ٤) .



قال تعالى في سورة الحجر: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر : ٤٦] ،
وقال في سورة (ق) : ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق : ٣٤] .

سؤال

لماذا ذكر الأمن في آية الحجر ، فقال : ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ ولم
يقبل مثل ذلك في آية (ق) ؟

الجواب

هناك ما حسن ذكر الأمن في آية الحجر ، ذلك أن الآية وردت في
سياق قصة آدم وإبليس ، وانتهت بإخراج آدم من الجنة ، فكان من
المناسب أن يؤمنهم ربنا من ذلك ، ومن كل ما يخشى منه ، وأنه
لا يصيبهم ما أصاب أباهم حين كان في الجنة ثم أخرج منها .

وقوى هذا المعنى بقوله : ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [٤٨] تمكيناً
لهذا المعنى في نفوسهم ، وإرغاماً لإبليس وزيادة في إغاظته ، وهو من
لطيف المناسبات .

وليس السياق في (ق) في مثل ذلك ، وإنما ذكر مجيء الموت ،

وفرازُ الإنسانِ منه ، فقال : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [١٩] .

فناسب ذكرُ الخلودِ الذي لا موت فيه ، والذي هو مطمَعُ الإنسانِ وغايةُ رغبته ، فقال : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ فكان كلُّ تعبيرٍ في مكانه أنسب .

* * *



قال تعالى في سورة النحل : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَشْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : ٦١] .

وقال في سورة الحجر : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَشْخِرُونَ ﴾ [الحجر : ٤ - ٥] .

سؤال

لماذا ذكر تأخير الأجل في النحل ، فقال : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَشْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

وقدّم سبق الأجل في الحجر ، فقال : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَشْخِرُونَ ﴾ ؟

الجواب

قدّم تأخير الأجل في النحل لأكثر من مناسبة :

فقد قال في الآية : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فناسب التأخير التأخير ؛ ولأن الناس يريدون تأخير الأجل ، فقدّم ما يريده الناس وما

يسعون إليه ؛ ولأنه قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ﴾ فقد يكون من أسباب الظلم الرغبة في البقاء ومدد الأجل ، فناسب ذلك تأخير الأجل .

وأما تقديم الأجل في الحجر ، فله سببه أيضاً ؛ ذلك أنه قال بعدها : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ ﴾ [٦ - ٨] .

فقد طلبوا إنزال الملائكة ، ولو أنزلها إليهم لم يمهلهم ولم يؤخرهم ، كما قال تعالى : ﴿ مَا نُنزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ ﴾ فكأنهم أرادوا استعجال أجلهم بطلبهم هذا ، فقال ربنا : ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ ﴾ ، فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .



قال تعالى في سورة النحل: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٦٤] ، فذكر الهدى والرحمة .

وقال فيها أيضاً : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠٢] ، فذكر الهدى والبشرى .

وقال في السورة نفسها : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] .

فذكر الهدى والرحمة والبشرى ، فجمع الأوصاف كلها ، فلم ذاك؟ ولم خصَّ كلَّ موطنٍ بما ذكر فيه من الهدى والرحمة أو الهدى والبشرى؟

الجواب

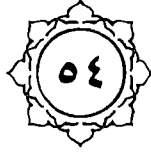
إن ما ذكره في الآية الرابعة والستين من قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ إنما هو غرضٌ واحدٌ من أغراضِ إنزالِ الكتابِ ، فأغراضُ إنزالِ الكتابِ كثيرةٌ ، أهمها وأولها عبادةُ ربهم غير أنه ذكر غرضاً واحداً وهو تبين الذي اختلفوا فيه ، فذكر الهدى والرحمة .

وكذلك ما ذكره في الآية الثانية بعد المئة ، وهو قوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ، فهو غرضٌ من أغراضِ إنزالِ الكتابِ ولم يذكرِ الأغراضَ كلها ، فذكر الهدى والبشرى .

وأما الآية التاسعة والثمانون فقد ذكر فيها أن التنزيل تبيانٌ لكل شيء ، فلم يترك شيئاً إلا شمله فجمع الأوصاف كلها ، فقال : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى ﴾ وهو المناسب لقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

أما الجوابُ عن السؤالِ الآخر ، وهو أنه لماذا خصَّ كلَّ موطنٍ بما ذكره من الهدى والرحمة أو الهدى والبشرى ، فهو أنه ذكر بعد الآية الرابعة والستين - وهي قوله : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ - أموراً من مظاهر الرحمة ، وذلك من نحو قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . . . وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِيُعَلِّمُوا فِي بُطُونِهِ . مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَرِثٌ وَدَرٍ لَبَنًا خَالِصًا . . . وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [٦٥ - ٦٧] فناسب ذكر الرحمة .

وإنه ذكر قبل الآية الثانية بعد المئة شيئاً من البشرى ، وذلك من نحو قوله تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٩٦ - ٩٧] . فناسب ذكر البشرى ، فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه .



قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٦ - ٦٧] .

سؤال

لماذا عدَّ السَّكَّرَ وهو الخمرُ من جملةِ النعمِ ؟
ولماذا ختمَ الآيةَ بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ مع أن الخمرَ تذهبُ بالعقلِ ؟

الجوابُ

- ١ - إن الآيةَ نزلت قبل تحريمِ الخمرِ ، ومع ذلك فهي ليست كما ظنَّ السائلُ .
- ٢ - قيل : إن من معاني السَّكَّرِ (الحَلَّ) ولكن المعنى المشهور للسُّكَّرِ هو الخمرُ ، ونحن سننظر في النصِّ بحسبِ المعنى المشهورِ .
- ٣ - إنه قَسَمَ ما يتخذه الإنسانُ من ثمراتِ النخيلِ والأعْنَابِ على قسمين :

السَّكَّرَ وَلَمْ يَصِفْهُ بِأَنَّهُ حَسَنٌ .

والرزقُ الحسنُ ، فأخرج السَّكَّرَ من الرزق الحسن ، مع أن الآية نزلت قبل تحريم الخمرِ ، وفي هذا لفت للنظرِ إلى أن الخمر ليست ممدوحةً .

٤ - إن الآية ليست خطاباً للمؤمنين ، وإنما هي لعموم الناس فيما يتخذونه من هذه الثمراتِ ، وهذا أمرٌ واقعٌ ، فإن الناس يتخذون من هذه الثمراتِ ما ذكر .

٥ - لم تكن الآية في تعدادِ النعم ، وإنما هي في ذكرِ ما هو حاصلٌ في واقعِ الأمرِ .

٦ - لم يقل في خاتمة الآية (لعلكم تشكرون) لسببين :

السببُ الأولُ : أنها ليست في سياقِ ذكرِ النعم .

والآخر : لثلا يشمل الشكرَ السَّكَّرَ .

٧ - ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وكأن في هذا إهابةً لترك السكرِ ؛ لأن السكرَ يخامرُ العقلَ ويغطيه ، أما الآية فإنها لمن يعقل لا لمن يُذهب عقله السكرُ .



قال تعالى في سورة النحل: ﴿ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَيَّ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل : ٧٠] .

وقال في سورة الحج: ﴿ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَيَّ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلًا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج : ٥] .

سؤال

لقد فصلت (لا) عن (كي) في الرسم في آية النحل ، فكتبت (لكي لا) ، ووصلت بها في آية الحج فكتبت (لكيلا) ، فما السبب ؟

الجواب

إن هذا من شؤون رسم المصحف الذي لا يُقاس عليه مع أنه يجوز وصل (لا) بـ : (كي) ، ويجوز فصلها عنها في الرسم ، ومع ذلك فإنه - كما يبدو - أن وصل (لا) بكي وفصلها عنها في رسم المصحف له ارتباطٌ بالناحية البيانية ، والله أعلم .

ذلك أن (من) في قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ ﴾ ونحوها تفيد ابتداء الغاية ، فقوله : ﴿ لِكَيْلًا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ ﴾ يفيد أن عدم العلم موصولٌ

بالعلم بلا فاصلٍ ، أي إن ذلك يكون بعد العلم مباشرةً .

وأما قوله : ﴿ بَعْدِ عِلْمٍ ﴾ فإن ذلك يحتمل أن يكون عدمُ العلمِ متَّصلاً بالعلمِ كالأولِ ، ويحتمل أن يكون بعده بمدَّةٍ .

ونظيره قولك : (فوقه) و (من فوقه) ، فإن قولك : (فوقه) يحتمل القربَ والبعدَ ، وأما (من فوقه) فيفيد الاتصالَ بما هو تحته ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ [فصلت : ١٠] ، فقال : (من فوقها) أي بلا فاصلٍ .

وقال : ﴿ أَفَأَمَّا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّهَا ﴾ [ق : ٦] ، فلم يأت بـ : (من) لأن الفوقية بعيدةٌ .

ونحوه قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتْ ﴾ [الملك : ١٩] ، فإنه لم يأت بـ : (من) لأنها كذلك ؛ أي إن الفوقية غيرُ متصلة^(١) .

فلما كان عدمُ العلمِ متَّصلاً بالعلمِ في آية الحجِّ ؛ أي حصل بعده مباشرةً بلا فاصلٍ وصلت (لا) بـ : (كي) فرُسمت موصولةً بها (لكيلا) .

ولما لم يكن كذلك في آية النحلِ فصلت (لا) عن (كي) فرُسمتا مفصولتين (لكي لا) .

وهذا الأمر لا يقتصر على هاتين الآيتين ، بل حيث وردت (كي) مع (لا) في المصحف رُسمتا ، بحسبِ هذا الأمرِ .

(١) انظر : معاني النحو (٢ / ٦٢٠) وما بعدها .

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب : ٢٧] .

ففصلت (لا) عن (كي) في الرسم ، وذلك أن الزواج بأزواج الأدياء إنما يكون بعد الانفصال عن أزواجهن ، وبعد انقضاء العدة ففصلت في الخط (لا) عن (كي) مجانسةً لذلك .

في حين رُسمت (لا) موصولةً بـ : (كي) في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ زَوْجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي زَوْجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] ؛ وذلك لأن الاتصال قائمٌ بأزواجه ، وبما ملكت يمينه .

ونحوه قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَضَعُوا ثِيَابَكُمْ وَلَا تُكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَارْتَسُوا يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبِكُمْ غَمًّا بَغْمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

إذ وصلت (كي) بـ : (لا) وذلك أن قوله : ﴿ فَأَتْبِكُمْ غَمًّا

بَغْمٍ ﴾ معناه أنه جازاكم غمًّا موصولاً بغمٍّ ، غمُّ الهزيمة وفوات

الغنيمة ، أو جازاكم غمًا موصولاً بغمٍ فعلتموه لرسول الله ﷺ لَمَّا عصيتم أمره^(١) .

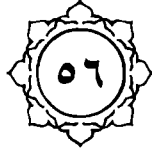
فلما كان الغمُّ الثاني موصولاً بالغمِّ الأول ، وصلت (كي)
ب : (لا) مجانسةً لوصل الغمَّين .

في حين رُسمت (كي) مفصولةً عن (لا) في قوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ [الحشر : ٧] .

وذلك أنه لا يريدُ أن تبقى الأموال دُولَة بين الأغنياء لا تخرج عنهم ، وإنما أراد أن يشاركهم فيها الآخرون ، ففصلت (لا) عن (كي) ؛ مجانسةً لإرادة ألا تبقى الأموال محصورةً في فئة معينة . وهذا من لطيفِ الرِّسم .

* * *

(١) انظر : تفسير أبي السعود (٢ / ١٠٠) .



قال تعالى في سورة النحل: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٧٩] .

وقال في سورة الملك: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] .

سؤال

لماذا قال في آية النحل: ﴿ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ بإسناد الإمساك إلى الله ، وقال في آية الملك: ﴿ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ بإسناد الإمساك إلى الرَّحْمَنِ ؟

الجواب

من أوجه:

١ - إن كلمة (الرَّحْمَنِ) لم ترد في سورة النَّحْلِ على طولها ، وهي (١٢٨) آية ، ووردت في سورة الملك أربع مرات ، وهي ثلاثون آية .

٢ - ووردت كلمة (الله) في سورة النَّحْلِ (٨٤) أربعاً وثمانين



مرة ، ووردت في سورة الملك ثلاث مرات .

٣ - لم يرد إسنادُ الفعلِ (سخر) إلى الرَّحْمَنِ في القرآنِ الكريمِ ، وقد أسند إلى الله في مواضعٍ عدةٍ ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [لقمان : ٢٠] ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ . . . ﴾ [الجاثية : ١٢] .

فمن حيث السِّمَةُ التَّعْبِيرِيَّةُ لِلشُّورَةِ والاستعمال القرآني للفعلِ (سخر) ناسب كلُّ تعبيرٍ موضعه .

٤ - وإن السِّيَاقُ في سورة الملكِ في ذكرِ مظاهرِ الرحمةِ ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [١٥] .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [٢٣] .

حتى إنه إذا حذرهم فإنه يحذرهم بزوالِ النعمِ ، من نحو قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [٢١] ، وقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ [٣٠] .

ومن مظاهر ذلك أنه حين ذكَّرههم بالمكذِّبين ممن قبلهم ، قال : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [١٨] ، ولم يقل : (فكيف كان عقاب) فذكر الإنكارَ عليهم ولم يذكر العقوبة ، كما قال في الرعدِ مثلاً (الآية : ٣٢) ، والإنكار أخف من العقوبة .

أما السِّيَاقُ في سورة النَّحْلِ ففي التَّوْحِيدِ والنَّعْيِ عَلَى الشَّرِكِ ،

وذلك نحو قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [٧٦] فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴾ [٧٦] ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ . . . وَضَرَبَ اللَّهُ
مَثَلًا لِّرَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْنَكُمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ . . . ﴿ [٧٦-٧٣] .

حتى إنه ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قد تقول : ولكن قال أيضاً في سياق آية النحل قبل هذه الآية :
﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [٧٨] .

فأقول : نعم ، ولكنها وردت في سياق التوحيد والتعبي على
الشرك ، ثم إنه قال في آية النحل : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾
فأسند ذلك إلى الله .

وقال في الملك : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ﴾ فأسند ذلك إلى الضمير
(هو) الذي يعود على الرحمن قبله في قوله : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ
يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمٰنِ ﴾ [٢٠] ، فأعاد الضمير على الرحمن ، فناسب ذكر
(الرحمن) في آية الملك ، وذكر (الله) في آية النحل .

٥ - ذكر في آية النحل أن الطير مسخرات ، وهو من باب القهر
والتدليل ، وليس من باب الاختيار ، فأسند ذلك إلى الله ، أما في آية
الملك ، فقد قال : إنهن ﴿ صَفَّيْتِ وَيَقِضْنَ ﴾ [الملك : ١٩] بإسناد ذلك إلى
الطير ، فهو من باب التمكين للطير ، وهو أنسب بالرحمة .

٦ - ذكر في سورة الملك شيئاً من الراحة للطير ، وهو قوله :

﴿صَفَّقَتْ﴾ وهو سكون الحركة ، فناسب ذلك ذكر الرحمة ، جاء في (ملاك التأويل) : « إن سورة الملك لما انطوت على ذكر حالين للطائر ، من صفه جناحيه وقبضهما ، وهما حالتان يستريح إليهما الطائر ، فتارة يصف جناحيه كأن لا حركة به ، وتارة يقبضهما إلى جنبه حتى يلزقهما بهما ، ثم يبسطهما ويقبضهما موالاة بسرعة كما يفعل السَّابِح ، فناسب هذا الإنعام منه تعالى وورود اسمه الرَّحْمَن .

أما آية النحل فلم يرد فيها ذكر هذه الاستراحة فليل هنا : ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ وتناسب ذلك وامتنع عكس الوارد بما تبين ، والله أعلم^(١) .

* * *



قال تعالى في سورة النحل : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ
وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾
[النحل : ٨١] .

سؤال

لماذا قال : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ ولم يقل : (والبرد) ؟

الجواب

قال بعضهم : استدللّ بذكر الحرّ على البرد ، فحذف ما يدلُّ عليه ،
أي : والبرد^(١) . وقد يكون اكتفى بقوله سبحانه في أول السورة :
﴿ وَاللَّهُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ [النحل : ٥]^(٢) .

وهناك أمرٌ آخر حسنٌ عدم ذكر وقاية البرد ههنا ؛ ذلك أن المقام في
ذكر الحرّ لا البرد ، فإن الإنسان يذهب إلى الظلال ليقى نفسه الحرّ ،

(١) انظر : شرح الأشموني (٣ / ١١٦) .

(٢) انظر : المغني (٢ / ٥٩١) .

ويذهب إلى الجبال في الصيف ليحتمي من الحرّ ، فكان المناسب ذكر
الوقاية من الحرّ .

وأما الوقاية من البرد فقد ذكرها في أول السورة كما أشرنا ، وقال
بعضهم : إن ذكر الحرّ يُغني عن ذكر البرد ، فإن القياس يكون بذكر
درجات الحرارة فإنها قد تتدنّى وقد ترتفع .

ولو كان الأمر كما ذكر هؤلاء لما كان داعٍ لذكر البرد أصلاً .

* * *



قال تعالى في موضعين من سورة الإسراء: ﴿ وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْنًا آءِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٤٩] ، ... ﴿ وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْنًا آءِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٩٨] .

وقال في سورة (المؤمنون) : ﴿ قَالَوَا آءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَّعِظْمًا آءِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٢] .

وقال في سورة الصّافات : ﴿ آءِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَّعِظْمًا آءِذَا نَا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات : ٥٣] .

سؤال

قال في آيتي الإسراء : ﴿ آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْنًا ﴾ ، وقال في آية (المؤمنون) وآياتٍ أخرى : ﴿ آءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَّعِظْمًا ﴾ فما الفرق ؟

الجواب

إن الترابَ والعظامَ أدلُّ على البلى من العظام والرفات ؛ ذلك أن (الرفات) هو الفتاتُ والحطامُ من كلِّ شيءٍ ، يقال : (رفت الشيء) :

كسره ودقه (١) . فإذا بلى الرفاتُ أصبح تراباً .

فبعث الترابِ والعظامِ أبعد في عقولِ المنكرين ، وأغرب من بعثِ العظامِ والرفاتِ ، وهو أدهى للعجبِ والإنكارِ ، وهذا يتضح من السياقِ الذي يرد فيه كلٌّ من التعبيرين .

ففي سياق آيتي الإسراء : ﴿ وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا آءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ لم يذكر من قولهم غير هاتين الآيتين في الإنكارِ ، فلم يقولوا بعدهما ولا قبلهما شيئاً يتعلق بإنكارِ البعثِ أو العجبِ منه .

وأما إذا ذكر الترابُ والعظامُ ، فإنه يذكر من إنكارهم واستبعادهم للبعث ما لم يذكره في العظامِ والرفاتِ .

من ذلك مثلاً ما جاء في سورة (المؤمنون) ، وهو قوله : ﴿ أَيْدِيكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هِيَاتَ هَيْبَاتٍ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [٣٥ - ٣٨] .

فأنت ترى من العجبِ والاستبعادِ ما هو ظاهرٌ ، مما لم يذكر نحوه في آيتي الإسراء ، ونحو ذلك قوله في السورة نفسها : ﴿ قَالَ آءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا آءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [٨٢ - ٨٣] .

ونحوه ما جاء في سورة الصافاتِ : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي

(١) انظر : لسان العرب (رفت) .

قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَهَذَاكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ آهَذَا مِنَّنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَهَذَا لِمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ . [٥٣ - ٥١]

ونحوه ما جاء في سورة الواقعة : ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِنَّنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَهَذَا لِمَدِينُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأُولُونَ ﴿٤٨﴾ . [٤٨ - ٤٧] .

فيضيفون إلى عجبهم وإنكارهم أن يُبعثوا مع آبائهم الأولين .

فكيف يبعث آباؤهم الأولون معهم وقد أصابهم من البلى ما أصابهم ؟ وهذا شأن كل ما ذكر فيه التراب والعظام .

ويدلُّك على هذا أيضاً أنه حيث ذكر التراب والعظام ، أضافوا إلى ذلك ذكر الموت فيقولون : ﴿ آهَذَا مِنَّنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ﴾ وذلك للزيادة في العجب والاستبعاد . فالميت لا يحيا وإن كان حديث الموت ، فكيف إذا أصبح تراباً وعظاماً ؟ !

ولم يذكر مثل ذلك مع العظام والرِّفَاتِ ، فذكر الموت مع التراب والعظام فيه جانبان :

جانبُ الزيادة في العجب والاستبعاد ، وجانب الإفاضة والتَّوَسُّعِ في دواعي الاستبعاد والإنكار ، مما يدعو إلى الإفاضة في ذكر الإنكار والعجب ، بخلاف ذكر العظام والرِّفَاتِ ، وعدم ذكر الموت ، فإنه أوجز في الكلام ، وأوجز في ذكر العجب والاستبعاد .



قال تعالى في سورة مريم: ﴿يَتَأْتِ بِإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٥] .

سؤال

لماذا قال : ﴿أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ وكان الأنسب فيما يبدو أن يقال : عذابٌ من الجبارِ أو المنتقمِ ونحو ذلك ؟

الجواب

١ - لقد قال قبل هذه الآية : ﴿يَتَأْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [٤٤] فذكر اسمَ الرَّحْمَنِ .

٢ - إن اسمَ الرَّحْمَنِ تكرر في هذه السورة (١٦) ستَّ عشرة مرة ، وهي أكثر سورة في القرآن تردد فيها هذا الاسم .

٣ - إن جو السورة يشيع فيه الرحمةُ من أولها إلى آخرها ، فهي تبدأ بالرحمة : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكُمْ زَكِرَاتًا﴾ [٢] .

وتنتهي بالرحمة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [٩٦] .

وَيَفِيضُ جَوْهَا بِالرَّحْمَةِ : ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾

[٢١] .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [٥٠] .

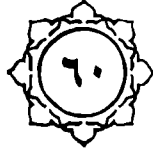
٤ - ثم إن إبراهيم قال بعد ذلك لأبيه : ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ

رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [٤٧] .

فلا يحسن أن يقول : أستغفر لك الجبار أو المنتقم ونحو ذلك ؛

لأن المغفرة تُطلب من الرحمن ، فناسب ذكر (الرحمن) من كل وجه .

* * *



قال تعالى في سورة مريم: ﴿ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿ [مريم : ٦١ - ٦٣] .

سؤال

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ .

- ١ - لماذا جاء بهذا التعبير ، ولم يقل مثلاً : (إن وعد الرحمن كان مأتياً) أو : (إن الرحمن كان وعده مأتياً) ؟
- ٢ - لماذا قال : (مأتياً) ولم يقل : (آتياً) ؟

الجواب

- ١ - الجواب عن السؤال الأول من أوجه :
أ - إن الهاء في (إنه) يحتمل أن تعود على الرحمن ، ويحتمل أن تكون ضمير الشأن ، وهو - أي ضمير الشأن - يفيد تفخيم الوعد وتعظيمه .

ب - لو قال : (إن الرحمن كان وعده مأتياً) لفات تفخيم الوعد

وتعظيمه مع أن الوعد له شأنٌ كبيرٌ وظاهرٌ في السياق .

ج - ولو قال : (إن الرحمن كان وعده مأتياً) لفات التّفخيمُ ؛ أي تّفخيم الوعد من ناحية ، ومن ناحية أخرى يكون الإخبار عن الوعد لا عن الرَّحْمَنِ ، مع أن الكلام على الرَّحْمَنِ أيضاً كما هو على الوعد ، فقد ذكر أن الرَّحْمَنُ وعد عباده ، وأن وعده مأتياً ، وأنه يورث الجنة لعباده الأتقياء ، فقال : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : ٦٣] .

وعلى هذا فقد ذكر الرَّحْمَنُ ، وأعاد عليه الضّمير أربع مراتٍ في الأقل .

الضّمير في ﴿ عِبَادُهُ ﴾ ، والضّمير في ﴿ وَعَدُهُ ﴾ ، والضّمير المستتر في ﴿ نُورِثُهُ ﴾ ، والضّمير في ﴿ عِبَادِنَا ﴾ ، مما يدل على أهميته في السياق .

د - في التعبير الذي جاء في الآية تّفخيمٌ وتعظيمٌ للرحمن وللوعد كليهما ، وكل منهما له أهميته في السياق كما هو ظاهر ، ولو قال أي تعبير آخر لم يجمع المعنيين معاً .

٢ - أما بالنسبة إلى السؤال الثاني فإن قوله : ﴿ مَاثِيًّا ﴾ هو المناسب من أكثر من وجه .

فإن المقصود بالوعد في الآية إنما هو الجنة ، قال تعالى : ﴿ جَنَّاتٍ

عَدْنِ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْفَنَاءِ ﴿١﴾ وهم يأتونها^(١) . قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر : ٧٣] ، فهي مأتية .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن هذا التعبير يُفيد قوة الوعد ، وأنه ناجز لا محالة ، فنحن نأتيه وهو يأتينا ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، أي : يمضون إلى قدر الله الذي قدره عليهم .

وقال : ﴿ آيَاتِنَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨] أي : يأتهم ، فالقدرُ يأتي ويؤتى ، كما قال الشاعر :

فَهِنَّ الْمَنَايَا أَيَّ وَاذٍ سَلَكْتَهُ عَلَيْهَا طَرِيقِي أَوْ عَلَيَّ طَرِيقَهَا
وَذَلِكَ أَدُلُّ عَلَى إِنْجَازِ الْوَعْدِ ؛ لِأَنَّهُ آتٍ وَمَأْتِيٌّ .

هذا مع أنه قيل أيضاً : إن (مأتي) هنا بمعنى اسم الفاعل ، أي آتٍ^(٢) ؛ كما قيل في جملة من أسماء المفعول نحو : (حجاباً مستوراً) .

والأولى عدم إخراج الصيغة عن الدلالة المشهورة لها ، مادام يمكن حملها عليها .

* * *

(١) انظر : البحر المحيط (٧ / ٢٧٩) .

(٢) انظر : البحر المحيط (٧ / ٢٧٩) ، وانظر : شرح الرضي على الكافية

(٣ / ٤١٥) .



قال تعالى في سورة طه : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي
التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً
مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ
إِلَىٰ أُمِّكَ كَىٰ نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٤٠﴾] طه : [٣٨ - ٤٠] .

وقال في سورة القصص : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِيَ
عَلَيْهِ فَكَأَلِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِعِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكِّ
لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ
مُوسَىٰ قَنَرًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾
﴿ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلِ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ
وَهُمْ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص : ٧ - ١٣] .

سؤال

لماذا قال في سورة طه : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴾ ، وقال في سورة القصص : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ ؟

الجواب

١ - الكلام في القصص مبني على الجمع ، وفي طه على الإفراد .

فقد قال في القصص : ﴿ فَأَلْقَطَهُ ءَأُلَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرِزًا ﴾ ، وقال في طه : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ ، فقوله في القصص : ﴿ ءَأُلَ فِرْعَوْنَ ﴾ ، وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ جمع بخلاف ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ ، فكان قوله : ﴿ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ ﴾ أنسب بالجمع ، وقوله : ﴿ مَن يَكْفُلُهُ ﴾ أنسب بالمفرد .

٢ - قال في القصص : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ﴾ ، وامرأة الرجل أهله في اللغة^(١) والقرآن . قال تعالى في امرأة سيدنا إبراهيم بعد أن قالت : ﴿ يَتَوَلَّيْءُ أَوْلَادًا أَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركته عليكم أهل البيت ﴿ [هود : ٧٢ - ٧٣] .

وقالت امرأة العزيز تكلم زوجها بخصوص سيدنا يوسف : ﴿ مَا جَزَاءُ مَن أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ [يوسف : ٢٥] .

(١) انظر : لسان العرب (أهل) .

وامرأة فرعونَ أهلُ بيته ، فناسب أن تدلَّ أخته أهلَ بيتِ فرعونَ على أهلِ بيتِ يكفلونه ، وليس في طه مثل ذلك .

٣ - قال تعالى في القصصِ : ﴿ فَأَلْقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ والراجحُ عند علماء اللغة أن أصلَ كلمة (آل) هو (أهل) أبدلت الهاء همزةً ثم ألفاً ؛ لاجتماع همزتين الأولى مفتوحة والثانية ساكنة ، فإذا صغرت (آل) قيل : (أهيل)^(١) .

فناسب ذكر الآل ذكر (أهل بيت) في القصصِ .

فآل فرعون هم أهله وخاصته ، فكان المناسب القول : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ ﴾ ، وليس في طه مثل ذلك .

٤ - إن هذا الجانب من القصة في سورة القصص أطول مما في طه ، كما هو واضح ، فهي في طه ثلاث آيات ، وفي القصص سبع آيات ، وقوله : ﴿ أَهْلٍ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ ﴾ أطول من قوله : ﴿ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾ ، فناسب الإيجازُ الإيجازَ ، والتبسُّطُ التبسُّطَ .

٥ - هذا ومن جهةٍ أخرى أن كلمة (أهل) وردت في القصص أكثر مما في طه .

وأن كلمة (من) وردت في طه أكثر مما في القصص .

فقد وردت كلمة (أهل) في القصص سبع مراتٍ ، وفي طه أربع

(١) انظر : لسان العرب (أهل) .



مراتٍ ، وأن كلمة (من) وردت في طه (٢٤) أربعاً وعشرين مرةً ،
ووردت في القصص (٢٠) عشرين مرةً ، فناسب كلَّ تعبيرٍ موضعه من
أكثر من وجهٍ .

* * *



قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [طه : ٧٧] .

وقال في الشعراء : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء : ٥٢] .

وقال في سورة الدخان : ﴿ فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ (١٣) وَأَتْرَكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : ٢٣ - ٢٤] .

سؤال

لماذا قال في آية الدخان : ﴿ فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ فذكر الليل ، ولم يقل مثل ذلك في آيتي الشعراء وطه ؟

الجواب

إن الإسراء لا يكون إلا في الليل سواء ذكر الليل أم لم يذكره ، فالليل هنا هو ظرف مؤكد ، ولما أمر ربنا موسى بالإسراء في آيتي الشعراء وطه ، علم أن ذلك إنما هو في الليل .

وأما ذكر الليل في الدخان وعدم ذكره في الآيتين الأخريين ، فلكثر

من سبب :

منها : أنه ذكر في الدخان من هذا الأمر ما لم يذكره في الآيتين
الآخرين ، وبيّن فيها ما لم يُبينه في المواطنين الآخرين ، فقد ذكر في
الدخان :

١ - أنهم متبعون .

٢ - وأن جند فرعون مغرقون .

ولم يذكر هذين الأمرين في الموضعين الآخرين ، وإنما ذكر
أحدهما في كل موضع ، فقد ذكر في الشعراء أنهم متبعون ، ولم يقل
له : إنهم جند مغرقون ، وإنما ذكر أنه لما تراءى الجمعان قال أصحاب
موسى : إنا لمدركون ، فنفى موسى ذلك بقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي
سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

ولم يقل له في طه : إنهم متبعون ، وإنما ذكر له النجاة ، فقد قال
له : ﴿ فَأَضْرِبْ لَهُمُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [طه : ٧٧] ثم
إنه ذكر بعد ذلك ما حصل .

ففضّل وبيّن في الدخان في تبليغه لموسى ، ما لم يُفصله وبيّنه في
المواطنين الآخرين .

ومنها : أن قوله : ﴿ لَيْلًا ﴾ ليس لمطلق التوكيد ، وإنما هو يدل
على ليلة بعينها ، فقولك : (جئت ليلاً) تريد فيه ليل ليلتك ، أو ليلة
بعينها^(١) .

(١) انظر : سيبويه (١ / ١١٥) ، الأصول (١ / ٢٢٠) ، الأمالي الشجرية
(٢ / ٢٥١) ، وانظر : معاني النحو (٢ / ٦١٢ - ٦١٣) .

ولو قلت : (جئت في ليلٍ) لم يتعَيَّن ذاك .

فقوله : ﴿ فَآتَرَ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ يريد فيه تعيين الليلة التي أمر بالإسراء فيها .

وأما قوله : ﴿ فَآتَرَ بِعِبَادِي ﴾ فإنه أمر بالإسراء من دون تعيين الوقت ، فكان في الدخان : تعيين وقت الإسراء ، وبيان أنهم متبعون ، وأن جند فرعونَ جندٌ مغرقون ، فناسب تبينُ الوقتِ ما ذكره من التبيين في التبليغ .

وناسبَ عدمَ التبيينِ للوقتِ تحديداً عدمَ التبيينِ لشيءٍ مما سيقع في الموضوعين الآخرين .

ومما زاد ذلك حُسناً في الدخانِ إضافةً إلى ما ذكرنا أنه قال في أول السورة : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿١﴾ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [٦-٣] .

فذكر الليلة التي يُفْرَق فيها كلُّ أمرٍ حكيمٍ ، فناسب ذلك ذكر الليل الذي فرّق فيها بين جند فرعونَ ، وأصحابِ موسى فأغرق فرعونَ وجنده ، ونجّى موسى ومن معه .

وهو من لطيف التناسبِ يراعيه القرآنُ فيما تحسن فيه المراعاة .



قال تعالى في سورة طه : ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿ طه : ١٣٠ - ١٣١ ﴾ .

وقال في سورة ق : ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿ ق : ٣٩ - ٤٠ ﴾ .

سؤال

لماذا قال في آية (طه) : ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ ، وقال في آية (ق) : ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ ؟

٢ - ولماذا قال في طه : ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾ ، بإطلاق التَّسْبِيحِ ، وقال في ق : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ بتخصيص التَّسْبِيحِ لله وذلك بذكر ضميره ؟

الجواب

١ - بالنسبة إلى السؤال الأول ، فإن قوله في آية طه : ﴿ وَقَبْلَ

عُرُوبًا ﴿ تنصيصٌ على غروبِ الشمسِ ، وذلك بذكرِ الضميرِ الذي يعود عليها .

وأما قوله في قَ : ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ فإنه يدلُّ على غروبِ الشمسِ بدلالةِ السِّيَاقِ ، قيل : على تقديرِ ضميرِ ، أو على قولٍ مَنْ يرى أن (أَل) عوضٌ عن الضميرِ ، وذكروا منه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ﴿١٠١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤١] أي : مأواه أو المأوى له (١) .

فكانه أخرج (الغروب) في (قَ) مخرجَ العمومِ ، وإن أريد به الخصوصُ . وكلُّ تعبيرٍ مناسبٌ للسِّيَاقِ الذي ورد فيه .

فإن السِّيَاقَ في (طه) أخرج مخرجَ الخصوصِ ، كما أنه ألصقَ بالشمسِ ، أما السِّيَاقَ في (قَ) فقد أخرج مخرجَ العمومِ وهو أبعدُ عن الشمسِ .

أما من حيث العمومِ في (قَ) فمن ذلك ما ذكرناه في قوله : ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ من أنه أخرج مخرجَ العمومِ ، وإن كان الكلامُ على الخصوصِ تقديرًا .

ومنه أنه قال في طه : ﴿ وَمِنْ آتَايَ اللَّيْلِ ﴾ وقال في قَ : ﴿ وَمِنْ آتَايَ ﴾ .

وآتاءُ الليلِ ساعاته ، ولاشكَّ أن (الليل) أعمُّ من ساعاتِ الليلِ ،



فكان الكلام في (ق) أُخرج مخرج العموم .

وأما من حيث إن السياق في طه أَلصَقُ بِالشَّمْسِ ، فإنه قال فيها : ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ له علاقةٌ بِالشَّمْسِ ، شروقها وزوالها عند الظَّهيرةِ وغروبها ، ويكفي ذكرُ (النهار) الذي آتته الشَّمْسُ .

وأما في (ق) فلم يذكر أمراً يتعلق بِالشَّمْسِ ولا بِالنَّهَارِ ، فقد قال : ﴿ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴾ وهذا ليس له علاقةٌ بِالشَّمْسِ ولا بِالنَّهَارِ .

فكان ذكرُ ضميرِ الشَّمْسِ في (طه) أنسب مع السِّيَاقِ من ناحيتين : ناحيةِ الخصوص ، وناحيةِ ماله علاقةً بِالشَّمْسِ وهو أطرافُ النهارِ .

هكذا من ناحية ، ومن ناحيةٍ أخرى أن السياق في طه بعد ذلك عن الدُّنْيَا والحياةِ الدنيا والرزقِ ، فقد قال بعد الآية : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [١٣١] .

وأما السِّيَاقُ في (ق) بعد الآية ففي الآخرة ، فقد قال بعد الآية : ﴿ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادَى الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَإِنَّا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [٤١ - ٤٤] .

فناسب فيها ذكر الغروبِ على العموم ، وهو غروبُ الشمسِ وذهابها وزوالها ، وغروبُ كلِّ شيءٍ مما يتعلق بأمرِ الدنيا من الكواكبِ والنجومِ والشَّمْسِ والقمرِ ، فأخراجه مخرجَ العمومِ أنسبُ في (ق) .

هذا وإن ذكر الآخرة بعد قوله : ﴿وَأَذْبَرَ السُّجُودَ﴾ من لطيف المناسبات ، ذلك أن الآخرة ستكون أديارَ السجود حيث لا يكون في الدنيا رجلٌ يقول : (لا إله إلا الله) وليس فيها رجلٌ ساجدٌ .

فكان كلُّ تعبيرٍ في مكانه هو المناسبُ من كلِّ ناحية ، إضافةً إلى فاصلةِ الآية .

٢ - وأما الجوابُ عن السؤالِ الثاني ، فإنه أمره في (ق) بنوعين من التسبيح :

١ - التسبيحُ بحمدِ ربِّه .

٢ - تسبيحُ الله نفسه ، وذلك أنه قال : ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ أي : فسبح الله ، أو فسبح ربك ، كما قال : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب : ٤١ - ٤٢] ، ذلك أنه قال فيها : ﴿وَأَذْبَرَ السُّجُودَ﴾ ومعلومٌ أنه بعد السجود يُسنُّ للمصلي أن يسبح الله ، فيقول : (سبحان الله) ثلاثاً وثلاثين مرة .

فناسب تسبيحُ الله أديارَ السجود .

ولما لم يرد في (طه) نحو ذلك أطلق التسبيح فقال : ﴿فَسَبِّحْ﴾ وحذف المتعلق ليشمل عمومَ التسبيح ، والله أعلم .



قال تعالى في سورة الحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج : ٢٧] .

سؤال

- ١ - لماذا قال : ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ فذكر وصف الضمور ؟
- ٢ - ولماذا وصف الفجَّ بالعمق ، ولم يصفه بالبعد مع أن معنى (عميق) هنا (بعيد) ؟

الجواب

- ١ - أما بالنسبة إلى السؤال الأول فإن معنى الضَّامِر هو المهزول الضَّعِيفُ المنهوك من السَّفَرِ ، وذكرُ هذا الوصف هنا مناسبٌ من أكثر من جهة .

منها : أنها تأتي من كل فجٍّ عميقٍ ؛ أي بعيدٍ ، والبعدُ هو الذي يُضمَر الإبل والمطايا ، ولم يقل : (من كل فجٍّ) فحسب ؛ لأن ذلك يشمل البعيدَ والقريبَ فلا يناسب ذكر الضمور .

ومنها : أنه قال : ﴿مِّنْ كُلِّ فَجٍّ﴾ ، وكلمة (فج) في الأصل هو

الطريق في الجبل ، وهو أنسب بالضُّمور من كلمة الطريق أو السَّبيل أو نحوه ؛ لأن السير في الجبل أدعى إلى التَّعب والمشقة والضُّمور .

٢ - وأما اختيار كلمة (عميق) على (بعيد) فهو أنسب هنا من أكثر من جهة أيضاً .

منها : أن اختيار كلمة (عميق) على (بعيد) أنسب مع ذكر الضُّمور ، ذلك أن العمق نقيض العلو والارتفاع ، وأن الصعود في السير أشق وأصعب من السير في الطريق المستوي ، فهو يضمن المطايا وينهكها .

ومنها : أن الحجَّ رفعةٌ وعلوٌّ في المنزلة عند الله ؛ لأنه مدعاةٌ إلى مغفرة الذنوب ، فالسالك في طريق الحجَّ آخذٌ بالارتفاع ، وسالك سبيل الصُّعود فناسب الوصف بالعمق من أكثر من جهة ، والله أعلم .

* * *



قال تعالى في سورة الثور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
[النور : ٣٥] .

سؤال

لماذا أخبر الله عن نفسه بأنه نورٌ ، ولم يُخبر بأنه ضياءٌ ، مع أن الضياء أقوى من النورِ ، بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس : ٥] ؟

الجواب

ليس صحيحاً ما ذكر من أنّ الضياء أقوى من النورِ ؛ لأن الضياء هو نورٌ ، غير أن النور أعمُّ من الضياء ، فكلُّ ضياءٍ هو نورٌ كما هو مُقررٌ في اللغة ، إن الضياء حالةٌ من حالاتِ النورِ وهو أخصُّ منه ، وذلك أن النورَ درجاتٌ بعضها أقوى من بعضٍ ، فإذا كان في حالةٍ قويةٍ فهو ضياءٌ^(١) ، فالضياء نورٌ وليس غيره .

(١) انظر : تفسير الرازي (٦ / ٢٠٨ - ٢٠٩) .

وقيل : هما مترادفان ، جاء في (لسان العرب) : « النور : الضياء ، والنور : ضد الظلمة »^(١) . وجاء في (تاج العروس) : « الثُّور بالضمّ الضوء أيّا كان أو شعاعه وسطوعه ... »

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ وتخصيصُ الشمسِ بالضوء والقمرِ بالنورِ ، من حيث إن الضوء أخصُّ من النور^(٢) .

وجاء في (المفردات) للراغبِ الأصفهانيّ : « النور : الضوء المنتشر الذي يُعين على الإبصار »^(٣) .

وبهذا يتضح أن النور أعمُّ من الضياء ، وأن الضياء قسمٌ منه أو حالةٌ من حالاته .

وقد قابل ربنا الظلماتِ بالنورِ ، قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] .

وقال : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وسمى الهدى نوراً والضلالَ ظلماتٍ ، قال تعالى : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم : ١] .

(١) لسان العرب (نور) ، وانظر : المصباح المنير (النور) .

(٢) تاج العروس (نور) .

(٣) المفردات (النور) .

وقال : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مُبِينًا فَاجْعَلْنَاهُ جَمَلًا لَمْ نُورَا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾
[الأنعام : ١٢٢] .

وسمى القرآن نوراً ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾
[النساء : ١٧٤] .

وقال : ﴿ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ [التغابن : ٨] .

فسمى الله نفسه نوراً لا ضياءً ؛ لأن الضياء حالة من حالات النور ،
وهناك حالات من حالات النور لا نعلمها ، الله يعلمها هي أعلى من
الضياء ، وحالات من النور غير الضياء ، فلا يصح قصر المطلق على
جزئية .

فالله هو النور المطلق ، « والنور المطلق هو الله سبحانه »^(١) .
والله أعلم .

* * *

(١) تفسير الرازي (٨ / ٣٨٣) .



قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ
وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ
مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء : ٤٨ - ٤٩] .

وقال في سورة المائدة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا
النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّنِيَّةُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن
كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا
وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا طَبِيسَ﴾ [الأنعام : ٩١] .

سؤال

لماذا وصف التوراة بأنها (ضياء) في آية الأنبياء ، ووصفها بأنها
(نور) في آيتي المائدة والأنعام ؟

الجواب

إن النور أعمُّ من الضياء ، والضياء حالةٌ من حالات النور وهو
أخصُّ منه كما ذكرنا في النقطة السابقة .

وقد ذكر في آية الأنبياء أنه : ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿ ، وهم أخص من ذكر في الآيتين الآخرين .

فقد قال في آية المائدة : ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي : لليهود ، والمتقون أخص من اليهود وهم جزء منهم .

وقال في آية الأنعام : ﴿الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام : ٩١] . فجعله للناس ، وهم أعم من المتقين المذكورين في آية الأنبياء ، والمتقون جزء منهم .

فجعل النور الذي هو أعم من الضياء للذين هم أعم ؛ وهم اليهود والناس ، وجعل الضياء الذي هو أخص للذين هم أخص ؛ وهم المتقون الذين يخشون ربهم ، وهم من الساعة مشفقون .

فناسب العموم العموم ، والخصوص الخصوص .

ومن ناحية أخرى أن الضياء إنما هو الساطع من النور ، أو هو التام منه (١) .

وإن المتقين إنما هم جماعة ساطعة من بين عموم المؤمنين أو الناس ، وحالهم أتم وأكمل ، فناسب بين سطوع المتقين وسطوع النور وهو الضياء ، فالمتقون من بين عموم المؤمنين كالضياء من النور .

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ

(١) انظر : تفسير الرازي (٦ / ٢٠٩) .

نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾
[البقرة : ١٧] .

« النار : جوهرٌ لطيفٌ مضيءٌ حارٌّ محرقٌ ، والنورُ ضوءٌها ، وضوء كلِّ نَبْرٍ ، وهو نقيضُ الظلمةِ . . . والإضاءةُ فرطُ الإنارةِ ، ومصدقُ ذلك قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ . . .

فإن قلت : هلا قيل : (ذهب الله بضوئهم) لقوله : ﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ ﴾ ؟

قلت : ذكر النور أبلغ ؛ لأن الضوء فيه دلالةٌ على الزيادةِ فلو قيل : (ذهب الله بضوئهم) لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نوراً ، والغرضُ إزالةُ النورِ عنهم رأساً وطمسهُ أصلاً . ألا ترى كيف ذكر عقيبه : ﴿ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلْمَةٍ ﴾ ، والظلمةُ عبارةٌ عن عدمِ النورِ وانطماسه ، وكيف جمعها ، وكيف نكَّرها ، وكيف أتبعها ، ما يدل على أنها ظلمةٌ مبهمَةٌ لا يترأى فيها شبحان ، وهو قوله : ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ « (١) .

* * *



قال تعالى في سورة العنكبوت في سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٥] .

وفي آيات أخرى سماها الفلك ، فقال : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ ﴾ [الأعراف : ٦٤] .

وقال : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾ [الشعراء : ١١٩] ، فما

السبب ؟

الجواب

السَّفِينَة هي الفلك ، غير أن العرب استعملت السَّفِينَة خاصةً بالمفردة المؤنثة .

أما الفلك فقد استعملتها عامةً ، فقد استعملتها للواحد والاثنين والجمع ، واستعملتها مذكرةً ومؤنثةً ، فتقول للواحد : (فُلك) تؤنثه وتذكّره ، وتقول للجمع أيضاً : (فُلك) ، وكذا استعمله القرآن .

قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [المؤمنون : ٢٧] ،

فجعلها مفردة مؤنثة ، فقد قال : ﴿ فَاسْأَلْ فِيهَا ﴾ .

وقال : ﴿ اَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللّٰهِ جَبْرِيْهَا وَمُرْسِنَهَا ۗ ۙ ۙ ﴾ وقال : ﴿ وَهِيَ تَجْرِيْ بِهَمٍّ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ [هود : ٤٢] ، وهي في ذلك كله مؤنثة .

وقال : ﴿ فَانجِنْتَهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُوْنِ ﴾ [الشعراء : ١١٩] .

وقال : ﴿ وَاِنَّ يُوْنُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِيْنَ ﴿ ١٣٩ ﴾ اِذْ اَبَقَ اِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُوْنِ ﴾ [الصافات : ١٣٩ - ١٤٠] .

فقال : ﴿ الْفُلْكِ الْمَشْحُوْنِ ﴾ فجعلها مفردة مذكورة .

وقال : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيْهِ مَوَآخِرَ ﴾ [فاطر : ١٢] ، فقال : ﴿ مَوَآخِرَ ﴾ فجعلها جمعاً .

وقال : ﴿ حَتّٰى اِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهَمٍّ ﴾ [يونس : ٢٢] ، فقال : ﴿ وَجَرَيْنَ ﴾ فجمع وأنث^(١) .

وقد تقول : ولمَ استعملها القرآن مذكورة أحياناً ، ومؤنثة أحياناً أخرى ؟

فنقول : إنه استعملها مذكورة في حالة ملئها بالحمل ، ولم يستعملها في غير ذلك ؛ ذلك لأن التذكير أقوى من التأنيث ، وأن المذكر أقوى من المؤنث ، قال تعالى : ﴿ فَانجِنْتَهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُوْنِ ﴾ [الشعراء : ١١٩] .

(١) انظر : لسان العرب (فلك) .

وقال : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴾ [يس : ٤١] ،
و : (المشحون) معناه : المملوء ، « والشحن ملؤك السفينة وإتمامك
جهازها كله ، شحن السفينة يشحنها شحناً : ملاًها »^(١) ، فشحن السفينة
ملؤها كلها .

ولذا عندما ذكر سيدنا يونس ، فقال : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِذْ
أَبَقَ إِلَى الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤١﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤٢﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿
[الصافات : ١٣٩ - ١٤٢] .

أفاد أنه أُلقي في البحر ؛ لأن السفينة كانت ملاءى ولا بد أن يخفف
من حملها ، فوقعَت القرعةُ عليه فالتقمه الحوت ، فلما ذكر أثقل حالاتها
حملاً ذكرها مذكراً .

قد تقول : ولكنه ذكر حالاتٍ أخرى تدلُّ على الملء ، ولم
يستعملها مذكراً ، وذلك قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ
إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] ، وقوله : ﴿ فَاسْأَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
مُغْرِبُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢٧] .

فنقول : إن الآيتين لا تدلان على الملء ، فهو لم يقل إنها
مملوءة ، فقد أمره في آية هود أن يحمل من كل زوجين اثنين ، وأهله

(١) لسان العرب (شحن) .

وَمَنْ آمَنَ ، وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ قَلَّةٌ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَاءَ مَن مَّعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

ومما يدلُّ على أن في السفينة متسعاً ، أنه نادى ابنه فقال : ﴿ يَبْنَؤُ
أَرْكَبَ مَعَنَا ﴾ [هود : ٤٢] .

وأما آية (المؤمنون) فقد ذكر أنه أمره أن يسلك فيها من كل زوجين
اثنين وأهله ، ولم يذكر من آمن ، فلم يصرِّح بالملء بخلاف التصريح
بالشحن ، وقيل : إن تأنيثها وتذكيرها كأنه « يذهب بها إذا كانت واحدة
إلى المركب فيذكر ، وإلى السفينة فيؤنث »^(١) .

ثم نأتي إلى السفينة والفلك في السؤال فنقول :

إن السفينة من السفن وهو القشر ، ومعنى (سفن الشيء) قشره ،
وسميت السفينة ؛ لأنها تسفن وجه الماء أي : تقشره^(٢) .

وأما الفلك فكانها سُميت بذلك ؛ لأنها تتركب الفلك ، ومن معاني
(الفلك) بفتح الفاء واللام : موج البحر إذا ماج واضطرب ، ومن
معانيه : الماء الذي حركته الريح ، وفلك البحر : وجه المستدير
المتردد^(٣) ، فكانها سُميت بذلك لما كانت تتركب الموج ، وما ذكرناه في
معنى الفلك .

وقد بينا أن (الفلك) أعمُّ من السفينة في الاستعمال اللغوي ؛ لأنه

(١) لسان العرب (فلك) .

(٢) انظر : لسان العرب (سفن) .

(٣) انظر : لسان العرب (فلك) .

يذكر ويؤنث ، ويكون للواحد وغيره بخلاف السفينة ، فإنها مفردة مؤنثة ، فهي مختصة .

وقد استعمل القرآن السفينة في مقام التخصيص فقط مناسبة لمعناها اللغوي ، وبخلاف الفلك فقد استعملها عامة وخاصة .

١ - فقد استعمل السفينة في المملوكة دون غيرها ، فقد قال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَكِبْنَا فِي الْسَفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ [الكهف : ٧١] ، وهذه السفينة كانت لمساكين يعملون في البحر ، كما جاء في السورة [الكهف : ٧١] .

ثم قال : ﴿ وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] ، أي : يأخذها غصباً من مالِكها .

فالسفينة في القرآن لم تستعمل إلا في سفينة نوح ، وهي المذكورة في آية العنكبوت ، وفي هذه السفن المذكورة في سورة الكهف ، وهي مملوكة لمساكين أو لآخرين في ذلك العهد .

وهي على آية حال خاصة بمالك أو خاصة بعهد معين هو عهد الملك المغتصب ، أو هي فلك نوح .

وأما الفلك فهي قد تكون خاصة كما في فلك نوح ، وقد تكون مطلقة تصلح لجميع الأزمنة ، وذلك نحو قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾ [لقمان : ٣١] .

وقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾

[الجاثية : ١٢] .

وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ
الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : ٤٦] .

٢ - ومن استعمالها مختصة أنه ذكر معها الأصحاب في قصة نوح ، فقال : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ وكلمة الأصحاب قد تأتي بمعنى المالكين ، وإن لم تكن كذلك في قصة نوح ، وإنما هي على تقدير (في) أي : وأصحابه في السفينة ، مثل : ﴿ يَصْدِحِي السِّجْنِ ﴾ أو تكون الإضافة لأدنى ملابسة ، فناسب ذكر الأصحاب استعمالها مملوكة في السياقات الأخرى ، فكانت في كل استعمالاتها مملوكة أو كالمملوكة .

٣ - ومن لطيف الاستعمال أنه مع ذكر السفينة التي هي خاصة ، ذكر المدة التي لبثها سيدنا نوح وخصصها ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَمِيسًا عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤] ، فذكره وخصصه مع ذكر السفينة التي هي أخص من الفلك .

٤ - ثم إنه قال في السفينة المذكورة في آية العنكبوت ، وهي سفينة نوح : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : جعل السفينة هذه آية ، ولو ذكر مكانها الفلك لم يدل نصًا على أن المقصود به الفلك الذي صنعه نوح ، بل يحتمل أن المقصود به عموم الفلك الذي يركبه الناس ، وقد ذكره ربنا ، وذكر أنه آية من آياته في أكثر من موضع ، فقال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْبُلِّ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ

دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وقال : ﴿ وَمَنْ أَيْنَبِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : ٤٦] فذكر أنه من آياته .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ [لقمان : ٣١] .

وقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٢ - ١٣] .

فلو ذكر الفلك أيضاً في آية العنكبوت لاحتتمل أن المقصود نحو ما ذكره في آياتٍ أخرى في الفلك ، ولم ينصَّ على أنه سفينة نوح .

فاستعمل السفينة التي هي - خاصة في اللغة - خاصة بسفينة نوح أو خاصة بمالكين أو خاصة بعهد معين ، وخصَّص معها مدة لبث نوح ، وخصَّصها بأنها آية للعالمين .

فما أجلَّ هذا التَّناسب والطفه !



قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

وقال : ﴿ فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا ﴾ [الملك : ١٥] .

سؤال

لماذا قال في آية العنكبوت : ﴿ سِيرُوا ﴾ ، وقال في سورة الملك :
﴿ فَأَمْشُوا ﴾ ، وما الفرق بين السير والمشي ؟

الجواب

يقال : (سار القوم) « إذا امتد بهم السير في جهة ما توجهوا
إليها »^(١) ، أما المشي فلانتقال الخطى وإن كانت قليلة .

والسير قد يكون للسفر وللتجارة والضرب في الأرض ، وللاعتبار
والاعتاظ ، ولغير ذلك على أن يكون ممتداً .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ

(١) لسان العرب (سير) .

الطَّوْرِ نَارًا ﴿ [القصص : ٢٩] ، وهو سير ممتد للعودة إلى مصر .

وقال : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ [سبأ : ١٨] ، وهو سيرٌ متطاوُلٌ ممتدٌ يستغرقُ ليالي وأياماً ، كما ذكر ربنا .

وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦] ، وهو سيرٌ للعبرة .

ونحوه قوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

أما المشي فيكون على الأرجل وإن كان قليلاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [لقمان : ١٨] .

وقال : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ ﴾ [القصص : ٢٥] .

وقال : ﴿ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٢٠] .



قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [العنكبوت : ٢٢] .

وقال في سورة الشورى: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣١] .

سؤال

لماذا قال في سورة العنكبوت: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ فذكر السماء إضافة إلى الأرض .

وقال في سورة الشورى: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فذكر الأرض ، ولم يذكر السماء ؟

الجواب

إن التهديد والتوعد في العنكبوت أشد وأعم ، وذلك أن السياق في العنكبوت يختلف عما في الشورى من أكثر من جهةٍ منها :

١ - أن الكلام في العنكبوت إنما هو على الكفار وتهديدهم ، وتوعدهم ، وذلك من مثل قوله: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا

وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ ابْتِكِ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴿١٧﴾ .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ بِرَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٢٣] .

وأما الكلام في الشورى فأكثره في المؤمنين أو هو عام ، وذلك من مثل قوله : ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [٢٣] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ [٢٥] .

وقوله : ﴿ وَلَوْ سَظَّ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ [٢٧] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [٢٨]

فناسب أن يكون التهديد في العنكبوت أشد .

٢ - إن جوَّ سورة العنكبوت إنما هو في ذكر الأمم الكافرة ، وموقفهم من رسلهم وعقوباتهم ، فقد ذكر قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وذكر مدين وعاداً وثمود ، وقارون وفرعون وهامان ، فناسب ذلك شدة التهديد والتحذير فيها ، ولم يذكر شيئاً من ذلك في الشورى .

٣ - قال تعالى قبل آية العنكبوت هذه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٢٠] .

وقال في الشورى : ﴿ وَمِن بَيْنِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا

مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ .

فقال في آية العنكبوت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وقال في الشورى : ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ .

فذكر قدرته في العنكبوت بما هو أعمُّ وأشملُ ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وذكر شيئاً من مظاهرِ قدرته في الشورى ، فقال : ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ فذكر جمع من في السموات والأرض .
وهذا ولا شك جزءٌ من قدرته ، فهو يدخل في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فذكر في العنكبوت ما هو أعمُّ مما في الشورى ، وهو السماء والأرض ، وذكر جزءاً من ذلك في الشورى ، وهو الأرض ، فناسب العمومُ العمومَ ، والتخصيصُ التخصيصَ .

٤ - ذكر في الشورى من مظاهرِ مغفرتِهِ وعفوهِ ولطفِهِ ما لم يذكره في العنكبوت ، فقد قال في الشورى : ﴿ وَالْمَلٰٓئِكَةُ سٰٓئِحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴿٥﴾ ، وهذا من رحمةِ الله بمن في الأرض ، فقد جعل الملائكة يستغفرون لهم .

وقال : ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿٥﴾ .

وقال : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ ﴿١٩﴾ ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ ﴿٢٣﴾ ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ ﴿٢٥﴾ ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ﴿٢٨﴾ ، وقال : ﴿ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ﴿٣٠﴾ ، وقال أيضاً :

﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [٣٤] ، ولم يرد في العنكبوت ذكرٌ للمغفرة أو العفو ،
 وإنما ذكر التهديد والتوعّد من مثل قوله : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا
 ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ
 يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [٤] ، وقوله : ﴿ وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ
 مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَعَثَةٌ وَهَمَّ لَا يُشْعُرُونَ ﴾ [٥٣] ، وقوله :
 ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَعُوا فَسَوْفَ يَعلَمُونَ ﴾ [٦٦] .

فناسب التوعّد الشديد والتهديد ما في العنكبوت .

جاء في (ملاك التأويل) : « للسائل أن يسأل عن زيادة الوارد في
 سورة العنكبوت ، من قوله : ﴿ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ولم يرد ذلك في سورة
 الشورى .

والجواب عنه - والله أعلم - أنه لما تقدّم قبلها قوله تعالى : ﴿ أَمْ
 حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا ﴾ وهذا من أشدّ الوعيد ، إذ حاصله
 أنه لا يفوته سبحانه أحد ، وأنه لا مهرب منه إلا إليه ، ناسب هذا قوله
 تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ كما قال : ﴿ آتِنَا مَا
 تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، إلى ما ورد من هذا وذلك
 تناسبٌ بين .

ولما لم يرد في سورة الشورى من أولها إلى الآية مثل هذا الوعيد
 الشديد ، ولا كان فيها ما يستدعي هذا التعميم والاستيفاء الوعدي ،
 وردت الآية مناسبة لذلك ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾



ولم يكن التعميمُ هنا ليناسب ، فورد كل على ما يجب وألله سبحانه أعلم»^(١) .

٥ - إن كلمة (الأرض) وردت في الشورى أكثر مما في العنكبوت ، فقد وردت في العنكبوت خمس مرات ، ووردت في الشورى عشر مرات ، فناسب الاقتصارُ على ذكر الأرض في الشورى من هذه الجهة .

٦ - إن كلمة السماء وردت في العنكبوت ثلاث مرات ، ولم ترد في الشورى ، فناسب ذكر السماء إضافةً إلى الأرض في العنكبوت من جهةٍ أخرى ، فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعه الذي ورد فيه من كلِّ جهةٍ ، وألله أعلم .



(١) ملاك التأويل (٢ / ٧٦٧) .



قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّرَ لَكُمْ مِنْ مَسَكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴿٤٠﴾ [العنكبوت : ٣٨ - ٤٠] .

وقال في سورة غافر: ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ [غافر : ٢٤] .

سؤال

لماذا قَدَّمَ (قارون) على فرعون وهامان في العنكبوت ، وأخره عنهما في غافر ؟

الجواب

إنه قال عن قوم ثمود : إنهم كانوا مستبصرين ، وكذلك قارون كان مُسْتَبْصِراً أيضاً ؛ لأنه كان من قوم موسى ، فبغى عليهم ، كما قال ربُّنا

عنه [القصة : ٧٦] فناسب ذكره بعد ثمود ، وأما فرعون وهامان فلم يذكر ذلك عنهما .

ثم إن تقديم (قارون) في سورة العنكبوت مناسب لما ورد في السورة من بسط الرزق ، فقد قال : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٦٢] .

وقارون بسط له في رزقه ، قال تعالى : ﴿ وَءَايَاتُنَا مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنْ مَفَاتِحُ لِنُنْزِلَ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ﴾ [القصة : ٧٦] .

وقد ذكر العقوبات في سورة العنكبوت مرتبة بحسب المذكورين ، فقد قال : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا ﴾ .

فقوله : ﴿ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ يعني عاداً ، وقوله : ﴿ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ يعني ثمود ، وقوله : ﴿ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ يعني قارون ، وقوله : ﴿ مَن أَغْرَقْنَا ﴾ يعني فرعون .

وأما في سورة غافر ، فقد قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ والإرسال كان إلى فرعون أولاً .

ثم إن السياق في الكلام على فرعون أولاً ، فقد قال : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ... وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [وما بعدها] . وغير ذلك ، فناسب تقديم فرعون في غافر .

ومن ناحية أخرى أن المذكور آخراً في هذين الموضعين ، لم يرد
بشأنه شيء في السورة .

فآخر مَنْ ذُكر في العنكبوت (هامان) ولم يرد بشأنه شيء في
السورة ، وأما مَنْ قبله فقد ذكر عقوبته .

وآخر مَنْ ذُكر في غافر : (قارون) ولم يرد بشأنه شيء في
السورة ، وأما (هامان) فقد ورد له ذكر في غافر ، فقد قال فيه : ﴿ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ يَنْهَكُمُنْ أَبْنِي لِي صَرَّحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ [٣٦] .

* * *



قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَلَهُوهُمْ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ مِنْ صَبَإِصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ
فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَوَدْيَرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢٦ - ٢٧] .

سؤال

لماذا قَدَّمَ الفريق في قوله : ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وأخره في قوله :
﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ ؟

الجواب

أما تقديم الفريق على ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ فإنه هو المناسب ، ذلك أن
هذه من أندرِ حالاتِ القتلِ وأغربها ، وأنها تستدعي التقديمَ للاهتمامِ ،
ذلك أن المرءَ يقاتل إما دفاعاً عن نفسه ، أو عن أهله وذريته ، أو عن
ماله ، أو عن داره ، أو عن أرضه .

إذ إن كلَّ واحدٍ من هذه الأمورِ يستوجب الدفاعَ عنه والقتالَ دونه ،
فكيف إذا اجتمعت كلها ؟

وهؤلاء لم يقاتلوا مع موجب أحوال الدِّفاعِ كلها ، مع أنهم بأيديهم
سلاحهم ، وقد كانوا في حصونهم ، بل نزلوا مستسلمين للقتلِ ملقنين
سلاحهم ، ولم يدافعوا عن شيءٍ من كلِّ ذلك ، وقد كانوا ستمئة مقاتلٍ .
وهذا يُبين مقدار الرعبِ الذي قُذِف في قلوبهم .

فتخيل أن رجلاً يُنادي على رجلٍ في حصنه معه سلاحه ، فيقول
له : انزل إليّ ، وألق سلاحك ، فأنا سأقتلك ، وأسبي أهلك وذريتك ،
وأخذ دارك ومالك وأرضك ، أفترى أنه فاعلٌ ذلك وهو مقتولٌ
لا محالة ؟

فهذا هو حال هؤلاء من بني قريظة .

فاقتضى ذلك تقديم هذا الفريق ؛ لغرابة حاله .

أما الفريقُ المأسورُ فلا يستدعي تقديمه وهي حالةٌ غير مُستغربة ،
ولا تستدعي الاهتمامَ ، فإنهم أطفالٌ ونساءٌ وليس فيهم مقاتلٌ .

فلا شكَّ أن أسرهم سهلٌ وميسورٌ فلا يقتضي التقديم .

* * *



قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾
[الأحزاب : ٧٢] .

سؤال

لماذا ذكر الجبال بعد الأرض وهي جزء منها ؟

الجواب

إن هذا من باب عطف الخاص على العام ، وذلك لعظم خلقها ،
فهي أعظم ما في الأرض .

وهذا النوع من العطف غير عزيز في اللغة ، فإنه يعطف الخاص
على العام لأهمية المعطوف ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ حَفِظُوا عَلَى
الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ، فعطف الصلاة الوسطى
على الصلوات ؛ وذلك لأهمية الحفاظ على هذه الصلاة .

ونحو قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٨] ، فعطف جبريل

وميكال ، وهما من الملائكة ؛ وذلك لتعظيم منزلتهما عند الله .

ثم إن الجبال ليست خاصةً بالأرض ، فهي موجودة في قسم من الأجرام السماوية ، وعلى هذا فإن ذكرها أفاد ما لم يُفده ذكر الأرض ، فربما عرض الله الأمانة على السموات والأرض وعلى الجبال ، أينما كانت سواء كانت في الأرض أم في غيرها .

ثم إن ذكرها بعد ذكر الأرض فيه إشارة إلى أمرٍ آخرٍ لطيف ، ذلك أن الجبال إنما هي رواسٍ للأرض ؛ لئلا تميد بنا ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٣١] ، ﴿ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : ١٥] .

وهذه الأمانة كالجبالِ رواسٍ للإنسانِ تثبته ؛ لئلا تميد به الأهواءُ وتعصف به الشهواتُ ، بل هي تُثبته في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] ، وهي أدومٌ من الأرضِ والجبالِ ؛ بل هي أدومٌ من السموات ، فإن الأرض ستزولُ والجبالُ ستُسْف ، والسموات ستُبدل ، أما هذه الأمانة فإنها باقيةٌ تثبته في الحياة الدنيا ، وتُثبته في الآخرة ، وتُثبته على الصراطِ ؛ لئلا يسقط في جهنم .

فذكر الجبال ههنا بعد ذكر الأرض من لطيف المناسبات .



قال تعالى في الآية السادسة والثلاثين من سورة سبأ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ : ٣٦] .

وقال في الآية التاسعة والثلاثين من السورة نفسها : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سبأ : ٣٩] .

سؤال

- ١ - لماذا قال في الآية السادسة والثلاثين : ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ولم يقل : (له) ، وقال في الآية التاسعة والثلاثين : ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ؟
- ٢ - ولماذا قال في الآية التاسعة والثلاثين : ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولم يقل مثل ذلك في الآية السادسة والثلاثين ؟

الجواب

- ١ - بالنسبة إلى السؤال الأول ، فقد ذكر ربُّنا في السورة قسمين من العباد :

قسماً بسط الله لهم الرِّزْقَ ، ولم يقدره لهم .

وقسماً بسط الله لهم الرزق ، ثم قدره لهم ؛ أي ضيقه .

فذكر كل آية لمناسبة كل قسم ، وإليك إيضاح ذلك :

لقد ذكر من الذين بسط لهم الرزق ، ولم يضيّق عليهم نبي الله داود ، ونبيه سليمان ، فقد ذكر أن الله آتاهما فضلاً ، ولم يضيّق عليهما ، فهما ملكان عظيمان في بني إسرائيل ، إلى أن توفاهما الله .

ومن الذين بسط لهم رزقهم ، ولم يقدره لهم المذكورون في قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿ [٣٥ - ٣٤] .

وهؤلاء ممن بسط لهم الرزق ، فقد ذكر أنهم مترفون ، والمترف مبسوط له في رزقه ، وذكر أنهم قالوا : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ ، فهؤلاء ممن بسط لهم في رزقهم ، ولم يذكر أنه ضيقه عليهم ، وقد قال بعد هذه الآية :

﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فذكر أن ربك يبسط الرزق ويقدر ، ولكن لم يذكر أنه يقدر لمن بسط له ، فقد يقدر له أو لغيره .

وقد ذكر في السورة أيضاً قوماً بسط لهم في رزقهم ، ثم ضيقه عليهم ، وهو ما ذكره عن سبأ ، فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لِمَ بَلَدُكُمْ طِينَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ [١٥] ، وهذا زمن البسط .

ثم قال : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ
أَكْلِ خَمَطٍ وَاَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي
إِلَّا الْكَافِرِينَ ﴿١١٧﴾] ، فضيَّق عليهم بعد البسط .

- فالأولون بسط لهم في رزقهم ، ولم يقدره لهم .
- والآخرين بسط لهم في رزقهم ، ثم قدره لهم .
- فناسبت كل آية قسماً من المذكورين في الشؤرة .

٢ - وأما ذكر ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ في الآية الثانية دون الأولى ، فقد
قيل : إن الآية الأولى في الكافرين ، وإن الآية الثانية في المؤمنين ،
وقوله : ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ مُشعرٌ بذلك .

جاء في (البرهان في متشابه القرآن) أنه : « لم يذكر مع الأول :
(من عباده) لأن المراد بهم الكفار ، وذكر مع الثاني ؛ لأنهم
المؤمنون »^(١) .

وجاء في (البحر المحيط) : « ومعنى ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أي : يأتي
بالخلف والعوض منه ، وكانت لفظة ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ مشعرة بالمؤمنين ،
وكذلك الخطاب في : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ ﴾ يقصد هنا رزق المؤمنين »^(٢) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن خاتمة كل آية من الآيتين تبين
مناسبة كل تعبير لما ورد فيه .

(١) البرهان (٢٧٩) .

(٢) البحر المحيط (٧ / ٢٨٦) .

فإنه ختم الآية الأولى بالكلام على الناس ، فقال : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ والناس عموم .

وختم الآية الثانية بالمؤمنين المنفقين ، فقال : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ وهم أخص من الأولين فإنهم جزء من الناس .

فأطلق في الآية الأولى مناسبة للعموم ، فلم يقل : (من عباده) ، وخصص في الآية الثانية مناسبة للخصوص ، فقال : ﴿ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ ، فناسب العموم العموم والخصوص الخصوص .

* * *



قال تعالى في سورة فاطر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر : ٢٩] .

سؤال

لماذا جاء بالفعل ﴿يَتْلُونَ﴾ مضارعاً ، وبالفعلين : ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ و ﴿أَنْفَقُوا﴾ ماضيين ؟ وما سرُّ هذا الترتيب ؟

الجواب

جاء بالفعل ﴿يَتْلُونَ﴾ مضارعاً للدلالة على الاستمرار والتجدد ؛ لأنه أكثر مما بعده ، فإن الذين يُقيمون الصلاة لابد أن يتلوا فيها كتابَ الله ، ولا تكون صلاةً من غير تلاوة .

والتلاوة قد تكون في غير الصلاة ، ولا يُشترط فيها ما يُشترط في الصلاة من وضوء أو استقبالِ قبلةٍ أو أوقاتٍ معينةٍ ، فهي أكثر من الصلاة ، وهي لاشكَّ أكثر من الإنفاق .

فجاء بالفعل فيها مضارعاً للدلالة على الاستمرار والتجدد .



وأما سرُّ الترتيبِ في الآية فهو واضحٌ ، فإنه تدرجٌ من الكثرةِ إلى القلَّةِ ، فالتلاوةُ أكثرُ من الصلاةِ كما ذكرنا ، والصلاةُ أكثرُ من الإنفاقِ ، فإن الصلاةَ المكتوبةَ فقط خمسةُ أوقاتٍ في اليومِ والليلةِ عدا السننِ ، والإنفاقُ لا يكون بهذه الكثرةِ .

هذا إضافةً إلى أن الصلاةَ فرضٌ على الجميعِ بخلاف الإنفاقِ ، فإن كثيراً من المصلين لا يجب عليهم إنفاقٌ ، وإنما قد تُصرف إليهم بعضُ وجوه الإنفاقِ كما هو معلومٌ .





قال تعالى في سورة يسَ : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ [يس : ٥١] .

سؤال

لماذا قال : ﴿ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ ولم يقل : (من القبور) ؟

الجواب

الأجداثُ هي القبورُ إلا أنه - والله أعلم - كان لاختيارِ الأجداثِ هلهنا وفي موطنين آخرين سبب ، ذلك أن الأجداثَ جمعُ جَدَثٍ وهو القبرُ ، ولفظة (الجَدَث) قريبةٌ في اللفظِ والاشتقاقِ من لفظ (جَدَثَةٌ) وليس بينهما إلا زيادةُ الهاءِ في الآخرِ .

والجَدَثَةُ صوتُ الحافرِ والخفِّ ومضغ اللحم^(١) .

وصوت خروج الموتى من الأجداثِ مُسرعين شبيهةٌ بصوت الحافرِ

(١) انظر : القاموس المحيط (الجَدَث) .

والخفّ عند السيرِ والعدوِ ، وقد خصَّ استعمالُ الأجداثِ بحالةِ الخروجِ من القبورِ مُسرعينِ إلى المحشرِ .

قال تعالى : ﴿ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴾ [القمر : ٧] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] ، ولم يستعملها في حالة السكونِ بخلافِ لفظةِ : (القبور) فإنه استعملها في حالِ السكونِ والهمودِ ، كقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْأَخِرَةِ كَمَا يَبْشَرُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ [الممتحنة : ١٣] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] .

واستعملها في حالِ بعثتها وبعثرة ما فيها ، فقال : ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتِ ﴾ [الانفطار : ٤] ، وقال : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ [العاديات : ٩] .

ومع ذلك فإن هناك فرقاً بين الحالتين ، فقوله : ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتِ ﴾ لا يدلُّ إلا على بعثرة القبورِ ، كما تقول : (بُعِثتِ الصناديقُ) ، و(بُعِثتِ الحاجاتُ) ، ولا يدلُّ على السيرِ والحركةِ ، وإن كان المقصود من بعثرة القبورِ ذلك .

وكذلك قوله : ﴿ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ فإنه يدلُّ على بعثرة ما فيها كما تُبعثر الأشياءُ من مكانها ، ولا يدلُّ ذلك من حيث اللفظ إلا على البعثرة ، ولا يدلُّ على السَّيرِ والحركةِ ، بخلافِ ما ورد في استعمالِ الأجداثِ ؛ فإنها كلها تدلُّ على حركةِ الخارجين منها والإسراعِ في

السير ، فقوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ معناه :
يُسْرَعُونَ .

وكذلك قوله : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفُضُونَ ﴾ ،
وقوله : ﴿ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى
الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿ [القمر : ٧-٨] ، أي : مُسْرَعِينَ .

فإنها كلها تدل على الإسراع في السير ، وذلك نظير صوت الحافر
والخف عند السير .

وفيها دلالةٌ جماليةٌ أخرى : ذلك أن من معنى (الجدثة) - كما
ذكرنا - مضغ اللحم ، فكأن المعنى : إنما يخرجون بعدما أكلتهم الأرض
ومضغت لحومهم ، وليس في لفظ القبور مثل ذلك المعنى ،
والله أعلم .



لماذا وصف الله سيدنا إسماعيلَ بأنه غلامٌ حليمٌ

فقال فيه : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] .

ووصف سيدنا إسحاق بأنه غلامٌ عليمٌ ، فقال فيه : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ

عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] ؟

الجواب

الحِلْمُ : هو أن يملك الشخصُ نفسه عند الغضبِ ، وهو يظهر عند التعاملِ مع الآخرين والعلاقةِ بهم .

وقد ذكر الله علاقةَ إسماعيلَ بأبيه وبالآخرين في أكثرِ من موطنٍ في القرآن الكريم ، فقد ذكر بعد قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ ، قوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ۗ قَالَ يَبْنَؤُا أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

وذكر بناءه البيتَ مع إبراهيمَ أبيه ، فقال : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

وقد ذكر الله عنه أنه رسولٌ نبيٌّ ، وأنه كان صادقَ الوعدِ ، والرّسالة إنما تقتضي حسنَ التعاملِ مع الآخرين .

وصدقُ الوعدِ إنما يكون إذا وعد جهةً ما بأمرٍ معينٍ فوفاها إياه ، ووصفه بالصيغةِ الاسمية يدل على ثبوتِ هذه الصفةِ فيه .

قال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [مریم : ٥٤ - ٥٥] .

وهذه الأمور تقتضي علائق اجتماعية وفيها يظهر الحلمُ أو غيره ، فوصفه بالحلم لذلك .

وأما إسحاق فلم يذكر له علاقة بالآخرين ، وقد وصفه الله بالعلم ، والعلم لا يقتضي مثل تلك العلائق .

ثم إنه قد ذكر الله عنه أنه نبيٌّ ولم يذكر أنه رسولٌ ، فقال : ﴿ وَتَبَرَّزْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصفات : ١١٢] .

وقال : ﴿ وَهَبْنَا لَهُمُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مریم : ٤٩] ، والنبوة لا تقتضي علائق كالرسالة ، فوصفه بالعلم ولم يصفه بالحلم .

ويحسنُ أن نذكر أنه حين يصفُ الله نبيًّا بصفةِ كمالٍ ، لا يعني أن الأنبياء الآخرين ليسوا متصفين بمثل هذه الصفةِ ، أو أن هذا النبي لم يتصف بصفة كمالٍ غيرها ، فإذا وصف نوحاً مثلاً بأنه كان عبداً شكوراً ، لا يعني ذلك أن الأنبياء الآخرين ليسوا كذلك ، وإذا وصف إبراهيم بأنه

أواةٌ مُنيبٌ لا يعني أن إخوانه من الأنبياء ليسوا كذلك ، بل كلهم عبادٌ شاكرون لأنعمه سبحانه منيبون إليه ، وإنما هو يذكر أمراً أو وصفاً يقتضيه السياقُ ، أو يكون مشتهراً به أكثر من غيره من الصِّفات ، فوصف كلاً منهما بما يقتضيه سياقه الذي ورد فيه ، أو الأمر الذي أُكِلَ إليه .

* * *



قال تعالى في سورة (ص) : ﴿ إِنَّ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص : ١٤] .

وقال في سورة (ق) : ﴿ كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : ١٤] .

سؤال

لماذا قال في آية (ص) : ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ وقال في آية (ق) : ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ ؟

الجواب

إن العقاب أشد من الوعيد ، والصفات المذكورة للكافرين في (ص) أشد مما في (ق) ، وهم في (ص) أشد وأعتى على المسلمين مما في (ق) ، وذكر من عقوبات الأمم السابقة في (ص) ما لم يذكره في (ق) ، وذكر من تهديد الكافرين وتوعدهم في (ص) ما لم يذكره في (ق) ، فناسب ذلك أن يذكر في (ص) أشد مما ذكره في (ق) .

قال تعالى في (ص) : ﴿ صَّ وَالْقُرْءَانَ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَرَاهَلِكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مَنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَوَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ

مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿١﴾ اجْعَلْ آلِهَةً إِلَهًا وَجِدًا إِنَّا هَذَا لَشَيْءٌ
عَجَابٌ ﴿٢﴾ وَأَنْطَلِقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ الْهَتِكُمْ إِنَّا هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٣﴾ مَا سَمِعْنَا
بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْأَخْرَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا أُخْلِقُ ﴿٤﴾ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ
ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٥﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٦﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿٧﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ
الْأَحْزَابِ ﴿٨﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿٩﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ
وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٠﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١١﴾ وَمَا
يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٢﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ
الْحِسَابِ ﴿١٣﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٤﴾ [١٧ - ١] .

وقال في (ق) : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ
فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَمْ نَدَامُنَا وَكُنَّا نَرَاءُ ذَلِكَ رَجْعًا بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ
الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ
مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّنَاهَا وَزَيَّنَّنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾
وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوْاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ
عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾
وَالنَّخْلَ بَاسْقِنَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ زَرْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ
الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾
وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدٌ ﴿١٤﴾ [١٤ - ١] .

ومن النظرِ في النَّصِينِ يَتَضَحُّ مَا يَأْتِي :

١ - أنه وصفَ الكافرين في (ص) أنهم في عزةٍ وشقاقٍ ، فقال :

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ ، ولم يقل مثل ذلك في (ق) .

٢ - وذكر أنه أهلك من القرون المُكذبة السَّابِقة الكثير فاستغاثوا وصرخوا فلم ينفعهم ذلك ، فقال : ﴿ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَوَلَّاتِ حِينٍ مَنَاصٍ ﴾ [٣] ، ولم يذكر مثل ذلك في (ق) .

٣ - قال الكافرون في الرَّسولِ في (ص) ما لم يقولوه في (ق) ، فقد قالوا في (ص) : ﴿ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴾ ، ولم يقولوا مثله في (ق) .

قد تقول : ولكن ورد أيضاً في (ق) ذكر التَّكْذِيبِ ، فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ [٥] .

فنقول : إنه ورد في (ص) من التَّكْذِيبِ ما هو أشدُّ ، إضافةً إلى ما ورد من وصف الرسول بالسحر والكذب ، فقالوا : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ [٧] ، أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوُّوا عَذَابٍ ﴾ [٧ - ٨] ، كما سنذكر .

٤ - كان إنكارهم في (ص) أشدَّ مما في (ق) ، فقد قالوا : ﴿ اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ ولم يقولوا مثله في (ق) .

٥ - وكان عجبهم في (ص) أشدَّ مما في (ق) ، فقد قالوا في (ق) : ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ، وقالوا في (ص) : ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ،

بالتوكيد بإن ، واللام ، والعدول عن صيغة عجبٍ إلى عجابٍ ، وهي أشدُّ عجباً من عجبٍ^(١) .

٦ - وذكر في (ص) أن الكافرين طلبوا السَّعي لنصرةِ آلِهِمْ ، فقال : ﴿ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَيَّ ءِ الْهَتِكُزَانِ هَذَا الشَّقِيُّ يُرَادُ ﴾ [٦] ، ولم يذكر ذلك عنهم في (ق) .

٧ - وكرروا إنكارهم وتكذيبهم في (ص) ، وأنهم لم يسمعوا بمثل هذا ، فقالوا : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْلَاقٌ ﴾ .

٨ - وكرروا إنكارهم أن يكون الله اختار محمداً ﷺ لرسالته دونهم ، فقال على لسانهم : ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [٨] ، ولم يذكر مثل ذلك في (ق) .

٩ - توعدهم ربُّنا في (ص) وهَدَّدهم بقوله : ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ ﴾ ، والنفي بـ : « لَمَّا » يعني أنهم لم يذوقوا عذابه إلى الآن ، وهو متوقع أن يذوقوه ، وهو تهديدٌ لهم وتوعدٌ بارتقَابِ العذابِ ، ولم يقل مثل ذلك في (ق) .

١٠ - وذكر في (ص) أن جندهم سيهزم ، فقال : ﴿ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ [١١] .

« وهذا وعدٌ من الله سبحانه لنبيه ﷺ بالنصرِ عليهم والظفرِ بهم .

(١) انظر : كتابنا (معاني الأبنية في العربية) (٩٨ - ١٠٠) .

وقد وقع ذلك والله الحمد في يوم بدرٍ ، وفيما بعده من مواطنِ الله ^(١) .

١١ - ذكر في السورتين طرفاً من الأمم السابقة المُكذبة ، غير أنه أكد التكذيبَ في (ص) أكثر مما أكده في (ق) .

فقد قال في (ص) : ﴿ **إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ** ﴾ [١٤] .

وقال في (ق) : ﴿ **كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدٌ** ﴾ [١٤] ، فراد التكذيبَ توكيداً في (ص) بأسلوبِ القصرِ ، فقال : ﴿ **إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ** ﴾ ، ولم يقل مثل ذلك في (ق) .

هذا إضافةً إلى أنه وصفَ فرعونَ في (ص) بما لم يصفه في (ق) ، فقال : ﴿ **وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ** ﴾ ولم يصفه بذلك في (ق) .

ومما قيل في وصفِ ذي الأوتادِ أنه كانت له أوتادٌ يعذب بها الناس ، وذلك أنه إذا غضب على أحدٍ وتد يديه ورجليه ورأسه على الأرضِ ، وقيل غير ذلك ^(٢) .

١٢ - ثم توَعَّدَهم في (ص) بعذابٍ يأخذهم لا يمهلهم ، فقال : ﴿ **وَمَا يَنْظُرُ هَوَٰلَاءَ إِلَّا صَيْحَةً وَنَجْدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ** ﴾ [١٥] ، أي : « ما لها من

(١) فتح القدير (٤ / ٤١٠) ، وانظر : تفسير ابن كثير (٤ / ٢٨) ، الكشاف (٥ / ٣) .

(٢) انظر : فتح القدير (٤ / ٤١١) ، ابن كثير (٤ / ٥٠٨) ، الكشاف (٥ / ٣) ، البحر المحیط (٧ / ٣٨٦) .

توقف مقدار فواقٍ ، وهو ما بين حلبي الحالبِ ورضعتي الراضع^(١) ،
ولم يذكر مثل ذلك في (ق) .

١٣ - وذكر في (ص) أن هؤلاء المشركين دعوا على أنفسهم
بتعجيل العذاب والعقوبة إمعاناً في التكذيب ، فقال : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا
قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [١٦] .

جاء في (تفسير ابن كثير) : « ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ
الْحِسَابِ ﴾ هذا إنكارٌ من الله تعالى على المشركين في دعائهم على
أنفسهم تعجيل العذاب ، فإن القطن هو الكتاب ، وقيل : هو الحظ
والنصيب .

قال غير واحدٍ من المفسرين : سألوا تعجيل العذاب . . . كما
قالوا : ﴿ اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَتْ هٰذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ
السَّمَاۗءِ اَوْ اَنْتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] «^(٢) ، ولم يذكر مثل ذلك في
(ق) .

١٤ - أمر رسوله ﷺ في (ص) بالصبر على ما يقولون ، فقال :
﴿ اَصْبِرْ عَلٰٓى مَا يَقُوْلُوْنَ ﴾ [١٧] ، ولم يذكر مثل ذلك في (ق) في هذا
السياق .

فاتضح أن موقف الكافرين في (ص) أشد وأعتى ، فاستحقوا

(١) الكشاف (٣ / ٥) ، وانظر : البحر المحيط (٧ / ٣٨٧) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٢٩) ، وانظر : الكشاف (٣ / ٦) .

الزيادة في التهديد ، فقال : ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ الذي هو أشدُّ من الوعيد ،
فناسب كلُّ سياقٍ ما ورد فيه .

ثم إنه ناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه من جهةٍ أخرى :

فقد قال في (صَ) : ﴿ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ فكان أسلوبُ
التكذيبِ في (صَ) أشدَّ وأكَّد ؛ لأنه جاء بأسلوبِ القصرِ فاستحقوا من
العقوبةِ ما هو أشدُّ مما هو في (قَ) .

١٥ - وإضافةً إلى ذلك أن كلمة ﴿ وَعِيدِ ﴾ وردت في (قَ) أربع
مراتٍ ولم ترد في (صَ) ، بل هي أكثرُ سورةٍ في القرآن وردت فيها هذه
اللفظة .

وأن كلمة (العقاب) لم ترد في (قَ) ، فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه من
جهةٍ أخرى ، والله أعلم .



قال تعالى في سورة (ص) : ﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٧] .

وقال في سورة الذاريات : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَيْنَهَا بَاطِنًا وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

سؤال

لماذا رُسمت ﴿ الْأَيْدِ ﴾ في سورة (ص) بياء واحدة ، ورُسمت في سورة الذاريات ﴿ بَاطِنًا ﴾ بياءين مع أنهما كلمة واحدة ، ولفظ واحد ؟

الجواب

من المعلوم أن رسم المصحف لا يُقاسُ عليه ، ولكن مع ذلك كأن في هذا الرّسم جانباً بيانياً .

إن معنى (الأيد) : هو القوة في الآيتين ، لكن لما كانت قوة الله زائدة على قوة داود زيد في الرّسم .

ومما سوّغ ذلك أيضاً أن الله سبحانه عبّر عن نفسه بضمير الجمع للتعظيم ، فقال : ﴿ بَيْنَهَا ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ بخلاف كلامه على

داود ، فناسب جمع ياءين في موطنِ الجمعِ ، والإفراد في موطنِ
 الإفرادِ ، علماً بأن هذا النوع من الرَّسْمِ كان جارياً في ذلك الوقتِ ؛
 أعني زيادة حرفِ علةٍ في الرَّسْمِ .
 فناسب كلُّ رسمٍ موضعه ، وهو من لطيفِ الرَّسْمِ ، والله أعلمُ .





قال تعالى في سورة الزمر: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٧٨﴾﴾ [الزمر : ١٧ - ١٨] .

وقال في سورة الفجر: ﴿يَأْتِيَنَّهَا نَفَسُ الْمُطْمَئِنَّةِ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

سؤال

لماذا قال في فاصلة آية الزمر: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ فحذف ياء المتكلم في كلمة ﴿عِبَادِ﴾ ، وقال في فاصلة آية الفجر: ﴿فَأَدْخُلِي فِي عِبْدِي﴾ فذكر ياء المتكلم فيها ؟

الجواب

إن هذا يدخل فيما ذكرناه في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) من أن ما ذكرت فيه الياء أوسع وأشمل مما حذفت منه الياء^(١) . وذلك أن العباد في آية الفجر أكثر منهم في آية الزمر ، فقد خصصهم في

(١) انظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني (٣١) وما بعدها ، وانظر : (ص : ٣٧)

آية الزمرِ بقوله : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ فهم لم يكتفوا بالحسن بل يتبعون الأحسن ، وأطلقهم في آية الفجرِ في عمومِ عباده الذين يدخلون الجنةَ ولا شكَّ أن فيهم مَنْ لم يكن يتبع أحسنَ القولِ .

فلما كثر العبادُ في آية الفجرِ زاد في البناء مناسبةً لزيادةِ العبادِ ، ولما كان العبادُ في آية الزمرِ جزءاً ممن ذكر في آية الفجرِ اقتطع من الكلمة ؛ لتناسب قلة البناءِ قلة العبادِ .

ومما حسَّن ذلك أيضاً مناسبةُ كلِّ فاصلةٍ للفواصلِ التي وردت معها ، فإن فاصلةَ آية الزمرِ تقع ضمن فواصلٍ شبيهةٍ بهذه الفاصلةِ ، نحو : ﴿ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴾ و : ﴿ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ ونحوها^(١) .

وإن فاصلةَ آية الفجرِ مناسبةٌ لفاصلةِ الآيةِ بعدها ، وهي قوله : ﴿ وَأَدْخِلْ جَنَّتِي ﴾ بإضافةِ الجنةِ إلى ياءِ المتكلمِ ، فناسب أن يظهر ضميرُ المتكلمِ مع العبادِ ، كما ظهر مع الجنةِ ، فالعبادُ عباده ، والجنةُ جنته ، وعباده يدخلون جنته .

* * *

(١) انظر : بلاغة الكلمة (ص ٣٧) .



قال تعالى في سورة غافر: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤًا لَا يَخْتَنِي عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ [غافر : ١٥ - ١٧] .

سؤال

لماذا قال : ﴿التَّلَاقِ﴾ فحذف الياء ولم يقل : (التلاقي) ؟

الجواب

من الظواهرِ التَّعبيرية في القرآنِ الكريم أنه إذا كان الحدث دونَ الاكتمالِ اقتطع من حروفه ، وإذا كان حدثان بعضهما أطولُ من بعضٍ ، أو كان وقوعه أكثر ، اقتطع مما هو أقصرُ ، وقد ضربنا في كتابنا : (بلاغةُ الكلمةِ في التعبيرِ القرآني) أمثلةً لذلك ، كما في نحو : ﴿أَسْطَلَعُوا﴾ و : ﴿أَسْتَطَعُوا﴾ ، و : ﴿تَنَزَّلُ﴾ و : ﴿تَسَزَّلُ﴾ ، و : ﴿تَوَفَّاهُمْ﴾ و : ﴿تَوَفَّنَاهُمْ﴾ وغيرها^(١) .

وفي هذا اليوم - أي يوم القيامة - ليس التلاقي كما في الدنيا من

(١) انظر : (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) (ص : ١١) وما بعدها .

حيث الطول وتبادل الحديث ، فإن المتلاقين لا يُفيضون في الحديث وبثّ الأشواق ، ولا يحدث بعضهم بعضاً عمّا جرى لكلّ منهم في الفراق الطويل بينهما ، فإن هذا اليوم إنما هو يوم الفرار الأكبر ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَلْبِ بَنِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤-٣٧] ، ولا يسأل أحدٌ صاحبه عمّا جرى له كما أخبر ربُّنا بذلك ، فقال : ﴿ وَلَا يَسْتَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج : ١٠] ، أي : لا يسأل قريبٌ قريباً فكيف بالأبعد ؟

وكما قال أيضاً : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] .

ومن هذا يتبين أن التلاقي يوم القيامة ليس كما في الدنيا ، من حيث بثّ المشاعر ، وسماع الحديث ، وطول المُكثِ بينهم ، وإنما هو فراقٌ من غير مُساءلة ، فإن لكلّ امرئٍ شأنًا يغنيه حتى يقضي الله بين عباده ، وتُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت .

فاقتطع من الحدث ؛ ليدل على أنه ليس حدثاً مكتملاً ، يجري فيه ما يجري مع المتلاقين في الدنيا .

هذا علاوة على مناسبة الحذف لفواصل الآيات ، والله أعلم .



قال تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

وقال في السورة نفسها في الآية : [٤٨] : ﴿ وَإِن تُصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ يَّمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ .

سؤال

لماذا قال في الآية الأولى : ﴿ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ يَّمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ فذكر الكسب في الآية الأولى ، وذكر التقديم في الآية الأخرى ؟

الجواب

لقد سبق الآية الأولى الكلام على الرزق ، فقال : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [٢٧] ، والرزق مما يكسب ، فناسب ذكر الكسب .

وليس السبب كذلك في الآية الأخرى ، وإنما السبب في الكلام على اليوم الآخر ، فقد قال : ﴿ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ ﴾

مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ .

فناسب ذكر ما قدموه من أعمالٍ ، فناسب كلَّ تعبيرٍ مكانه الذي ورد فيه .

ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الروم : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ [٤١] .

فذكر الكسبَ لما تقدمها ذكُرُ الرِّزْقِ والأموالِ ، فقال : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٣٧] فَاتَّذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَأِنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٣٨] وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [٣٩] اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [٣٧ - ٤٠] .

في حين قال في السورة نفسها : ﴿ وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : ٣٦] ، فقال : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ فذكر التقديمَ لما لم يكن السياقُ في ذكر الرِّزْقِ ، وإنما تقدمها ذكر الضَّرِّ والرَّحْمَةِ ، فقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ رَبَّهُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [٣٣] ، فناسب كلَّ تعبيرٍ مكانه الذي ورد فيه في كلِّ موضع .



قال سبحانه في سورة الشورى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْشَاءً وَيُهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْسَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

سؤال

- ١ - لماذا قدّم الإنثاء على الذكور ، ونكّر الإنثاء ، وعرّف الذكور في الآية التاسعة والأربعين ؟
- ٢ - لماذا جمع الذكر على ذكور في الآية الأولى ، وعلى (ذكران) في الآية التي قبلها ؟

الجواب

- ١ - إن الجواب عن السؤال من أكثر من وجه :
 منها : أنه تردد في السورة في أكثر من موضع ما لا يرغب فيه الإنسان ولا يشاؤه ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَمَا أَصْبَحُ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [٣٠] ، وقوله : ﴿وَجَزَاءُ سِنَّةٍ سِنِّتَهُمْ مِثْلَهَا﴾ [٤٠].

وقوله : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [٤٣] ، وواضح أن الصبر ههنا على المكاره ومغفرة ما يسوؤه من الأمور .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَاقَدَمَتِ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ [٤٨] .

وقوله : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴾ [٤٩] .

فقدّم ما لا يرغب فيه أهل الجاهلية آنذاك ، وهو متسق مع ما تردد في السورة كما ذكرنا .

ثم إن سياق الكلام في أن الله فاعل ما يشاء لا ما يشاؤه الإنسان ويهواه ، فقد قال : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى : ٤٩] ، أي : ما يشاؤه هو ، لا ما يشاؤه الإنسان ، وذلك لحكمة أرادها سبحانه .

جاء في (روح المعاني) : « ولما ذكر سبحانه إذاقة الإنسان الرحمة ، وإصابته بضدها ، أتبع جلّ وعلا ذلك أن له سبحانه الملك ، وأنه تعالى يقسم النعمة والبلاء كما شاء بحكمته تعالى البالغة ، لا كما شاء الإنسان بهواه »^(١) .

ثم إن هذا التقديم ناسب ذكر البلاء في الآية التي سبقت هذه الآية ، وهو قوله : ﴿ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَاقَدَمَتِ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ [٤٨] .

ومجيء الإناث مما يُسيء العرب آنذاك ، وهو ما يكرهونه

(١) روح المعاني (٢٥ / ٥٣) .

لأنفسهم ، كما أخبر عنهم سبحانه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلْأَسَاءُ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٨ - ٥٩] ، فجعلها في سياق ما يصيبهم مما يكرهون .

وقيل : قد يكون التقديم توصيةً برعايتهن لضعفهن ، وإن إحسان التربية إليهن سترٌ من النار كما في الحديث^(١) .

أما تعريف الذكور وتنكير الإناث ، فقد قيل : إنه « جاء لفظُ الذكور معرّفًا ليشير - بما تُعطيه الألف واللام من العهدية - إلى حالهم من الفضل ، ودرجة التقدم على الإناث ، فكأنه في قوة أن لو قيل : الذين من شأنهم ، فتوازن تقديم الإناث وتعريفُ الذكور ، فقدّم ذكر الإناث لإرغام العرب ، وعرّف الذكور لشرفِ المنزلة »^(٢) .

وقيل : « إن التعريف على أنه المعروف الحاضر في قلوبهم أول كل خاطر ، وإنه الذي عقدوا عليه مناهم »^(٣) .

ثم إن العرب يُكثون عن النساء ، ولا يذكرون أسماءهن صوتاً لهن ، بخلاف الذكور ، فالذكور معارفٌ عند العرب مشاهيرٌ عندهم ، بخلاف الإناث ، فإنهن مصوناتٌ مستوراتٌ لا يبرزن ولا يُعرفن ، فعرّف ونكّر بحسب ما جرت العادة عندهم من استحسان كل جنس ، والله أعلم .

(١) انظر : روح المعاني (٢٥ / ٥٤) .

(٢) ملاك التأويل (٢ / ٨٤٧) .

(٣) روح المعاني (٢٥ / ٥٤) .

٢ - أما الجواب عن السؤال الثاني ، وهو أنه لماذا جمع الذكر مرة على الذكور ، ومرة على ذكران ؟ فهذا له سببه ، فإن القرآن الكريم يستعمل (فُعْلان) في الجمع للقلة النسبية .

وعلى هذا حيث ورد هذان الجمعان في القرآن كان الذكران أقل من الذكور ، وفي الآية هذه قال تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُرْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ [الشورى : ٤٩ - ٥٠] . « فاستعمل الذكور للكثرة ، والذكران للقلة النسبية ، فإن العادة أنه إذا أفرد شخص بالذكور كانوا أكثر من أن يقرنهم بالإناث ، فإن المرأة إذا ولدت ذكورا فقط كان عدد الذكور أكثر في العادة من أن تلد ذكرانا وإناثا .

وقال تعالى : ﴿ تَاتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥] ، وقال : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْئَةِ خَالِصَةٌ لِّلذُّكُورِنَا ﴾ [الأنعام : ١٣٩] ، فاستعمل الذكران للقلة النسبية ، فإن الموصوفين بهذه الصفة لا يأتون جميع الذكور ، وإنما يأتون صنفاً خاصاً منهم ، ألا ترى أنهم لا يأتون الأطفال والشيوخ ، وإنما يأتون من تستسيغه نفوسهم المنكوسة من الذكران ، وهم أقل من مجموع الذكور بخلاف قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةٌ لِّلذُّكُورِنَا ﴾ فإنه يشمل جميع الذكور بلا استثناء ، والله أعلم^(١) .

* * *

(١) معاني الأبنية في العربية (١٥٨ - ١٥٩) .



قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢] .

وقال في الآية التي تليها: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

سؤال

لماذا قال في الآية الأولى: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ ، وقال في الآية التي تليها: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ ؟

الجواب

إن الآية الأولى في كفار العرب المعاصرين للرَّسُولِ ﷺ ، وقد ذكر عنهم أموراً تتعلَّق بمعتقداتهم في الملائكة والعبادات ، ومحاجَّتهم في ذلك .

فقد قال عنهم في سياق هذه الآيات : إنهم قالوا عن الله سبحانه : إنه اتَّخَذَ مما يخلق بناتٍ ؛ يعنون الملائكة ، فقال لهم سبحانه : ﴿ أَمِيرٌ

أَتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُم بِالْبَنِينَ ﴿ [الزخرف : ١٦] .

وقال ذاكراً معتقدهم في الملائكة : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [١٩] ، وحكى عنهم ما كانوا يعتقدون في المشيئة ، فقال : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [٢٠] .

وردّ عليهم سبحانه بعدم العلم ، قائلاً : ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [٢٠] نافية عنهم العلم بذلك .

وهذا مما يحتاج إلى الهدى ، ولا تُقال تخرصاً وظناً ، ثم قال سبحانه نافية عنهم أسباب الهدى والعلم : ﴿ أَمْ أَلْيَنَّاكُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [٢١] ، ولما كانت هذه الأمور تحتاج إلى الهدى احتجوا بأنهم مهتدون بآثار آبائهم ، فقالوا : إنهم وجدوا آباءهم على ملة أو دين ، وهم مهتدون على آثارهم .

وأما الآية الأخرى فهي في الأمم السابقة ، فقد قال : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

ولم يذكر عنهم معتقداً ولا احتجاجاً ، ولا سبباً من أسباب العلم والهدى ، فلم يقتضِ ذكر الهدى .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ذكر قول مترفيهم ، والمترفون لا تعنيهم أمور العبادات ولا يعينهم الهدى ، ولم يذكر القرآن الذين أترفوا والمترفين بخير ، بل حيث ذكّرهم ذكّرهم مُعَانِدِينَ مُعْرِضِينَ

مُكذِّبِينَ مُحَارِبِينَ لِّلَّهِ وَرُسُلِهِ ، لَا يَعْنِيهِمْ شَيْءٌ مِّنْ أُمُورِ الْهُدَىٰ ، فَلَمْ يَذْكُرُوا الْهُدَىٰ ، وَإِنَّمَا ذَكَرُوا أَنَّهُمْ مُتَّبِعُونَ لِآبَائِهِمْ مُقْتَدُونَ بِهِمْ عَلَىٰ آيَةٍ حَالٍ ، وَالِاقْتِدَاءُ هُوَ الْإِتْبَاعُ عَلَىٰ آيَةٍ حَالٍ سِوَاءِ كَانِ الْقِدْوَةُ ضَالًّا أَمْ مَهْتَدِيًّا ، جَاءَ فِي (الْمَفْرَدَاتِ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ) :

« الْأَسْوَةُ وَالْإِسْوَةُ كَالْقِدْوَةِ وَالْقِدْوَةُ ، وَهِيَ الْحَالَةُ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا فِي اتِّبَاعِ غَيْرِهِ إِنْ حَسَنًا وَإِنْ قَبِيحًا ، وَإِنْ سَارًّا وَإِنْ ضَارًّا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الْأَحْزَابِ : ٢١] فَوَصَفَهَا بِالْحَسَنَةِ « (١) .

جاء في (درة التنزيل) في سبب الاختلاف بين هاتين الفاصلتين في الآيتين المذكورتين من سورة الزخرف : « الجواب أن يقال : إن الأولى حكاية قول الكفار الذين حاجبوا النبي ﷺ ، فقال مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ أَمْ ءَأَنبَأُكُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ ﴾ أي : من قبل القرآن ﴿ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [الزخرف : ٢١] أي كتاباً فيه حجةٌ بصحة دعواهم فهم متعلقون به ...

وقال تعالى : لا حجةَ لهم ، لكنهم قالوا : وجدنا آباءنا علىٰ ملةٍ وطريقةٍ في الدين مقصودةٍ ، ونحن في اتباع آثارهم علىٰ هدايةٍ ، فادَّعَوْا الْإِهْتِدَاءَ بِسُلُوكِهِمْ سَبِيلَ آبَائِهِمْ .

وأما الآية الثانية فإنها خبرٌ عن الأمم الكافرة بأنبيائها ، قال : ﴿ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ [الزخرف : ٢٣] إلا قال ذوو النعم والأموال

(١) المفردات في غريب القرآن (أسا) .

من أهلها قريباً من قول هؤلآء الذين في عصرك يا محمد ، فكان أقصى ما احتجوا به أن قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة فافتدنا بهم ، ولم يؤكد الخبر عنهم بدعواهم الالتهاء ، كما أكده عمّن كان في عصره ممن يدعيه ؛ لبطلان قول الجميع « (١) » .

وجاء في (ملائكة التأويل) في هاتين الآيتين : « ووجه ذلك - والله أعلم - أن ما تقدم الآية الأولى حكاية قول كفار العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ ، والسامعين منه القرآن المسّمى هدى في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] وقوله : ﴿ هَذَا هُدًى ﴾ [الجاثية : ١١] ، وقوله : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان : ٣] فلما دعاهم ﷺ ليهتدوا بهديه قابلوا دعاءه بقولهم : إنهم مهتدون ، وإنهم وجدوا آباءهم على أمة ، وأن ما وجدوهم عليه هدى ، فقالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف : ٢٢] أي : على دين وملّة ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ كهديهم ، فلما دعاهم إلى الهدى زعموا أنهم على هدى . وهذا أبين تناسب .

وأما الآية الثانية فحكاية أقوال قرونٍ مختلفة ، وقد ذكر تعالى من قول بعضهم : ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَا عِبْدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٣] وفي موضع : ﴿ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٧٤] فهذا أتباع مجرد ممّن ادعى كونه هدى أو غير هدى ، فهو اعترافٌ بتقليد ، واتباع بتعظيم لفعل آبائهم من غير ادعاء شبهة ، فلم يكن ليطابق هذا ، إلا الوارد من قوله تعالى

عنهم : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] ، فجاء كلُّ على ما يناسبُ ، والله أعلمُ «^(١) .

* * *

(١) ملاك التأويل (٨٥١ - ٨٥٢) .



قال تعالى في سورة الزخرف : ﴿ قَلَّ أَوْلُو جِحْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ﴾ [الزخرف : ٢٤] .

سؤال

لماذا رُسمت (قال) في الآية الرابعة والعشرين من سورة الزخرف ﴿ قَلَّ ﴾ من دون رسم الألف ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَلَّ أَوْلُو جِحْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ ﴾ . ورُسمت في الآية السادسة والعشرين من السورة نفسها بـ : ﴿ قَالَ ﴾ برسم الألف وذلك في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَقَوْمِهِ ... ﴾ ؟

الجواب

إن ذلك يتعلق برسم المصحف أولاً ، ورسم المصحف لا يُقاس عليه ، ثم إن ذلك لأمرٍ آخر ، وهو أن في ﴿ قَالَ ﴾ في الآية الرابعة والعشرين قراءتين متواترتين : قراءةً بالفعل الماضي (قال) ، وهي قراءة



ابن عامر وحفص عن عاصم ، وقراءةً بفعلِ الأمر : (قل) وهي قراءةُ
الباقيين من العشرة^(١) .

فكلتا القراءتين متواترةٌ فرُسمت بما تصحُّ فيه القراءتان ؛ إشارةً إلى
أن هاتين القراءتين وردتا عن رسول الله ﷺ . ومعلومٌ أن من أركانِ القراءةِ
الصَّحيحةِ موافقةُ الرسمِ العثمانيِّ .



(١) انظر : النشر في القراءات العشر (٢ / ٣٦٩) .



قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ
إِلَهٌُ ﴾ [الزخرف : ٨٤] .

سؤال

لماذا كرر كلمة ﴿إِلَهٌُ﴾ ولم يقل مثلاً : (وهو الذي في السماء
والأرض إله) أو : (وهو الذي في السماء وفي الأرض إله) ؟

الجواب

لو قال : (وهو الذي في السماء والأرض إله) لاحتل المعنى أنه
هو الإله المشترك فيهما ، وقد يكون فيهما آلهة غير مشتركة ، فقد يكون
المعنى أن في السماء إلهاً أو آلهة خاصة بها ، ليست لأهل الأرض ، وقد
يكون في الأرض إلهٌ أو آلهة خاصة ليست لأهل السماء ، ولكن الإله
المشترك فيهما هو الله ، وهذا المعنى لا يصح أن يُراد .

أما لو قلنا : (وهو الذي في السماء وفي الأرض إله) فإن ذلك
لا ينصُّ على أنه إلهٌ في السماء ، بل على أنه إلهٌ في الأرض ؛ إذ إن
المعنى سيحتمل أن يكون : (وهو الذي في السماء) (وفي الأرض

إِلَهَ) فَإِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ ، وَهُوَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ، كَمَا تَقُولُ : (هُوَ فِي إِدَارَةِ الْمَعْمَلِ ، وَفِي كَلِيَّةِ الْأَدَابِ عَمِيدٌ) فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَعْنِي أَنَّهُ عَمِيدٌ فِي إِدَارَةِ الْمَعْمَلِ .

أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ﴾ فَهُوَ نَصٌّ فِي أَنَّهُ إِلَهٌُ فِي السَّمَاءِ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَفِي الْأَرْضِ هُوَ إِلَهٌُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَهُوَ الْمَعْنَى الْمُرَادُ .

وَقِيلَ أَيْضاً : إِنَّهُ كَرَّرَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ عِبُودِيَّةَ أَهْلِ السَّمَاءِ تَخْتَلِفُ عَنِ عِبُودِيَّةِ أَهْلِ الْأَرْضِ ^(١) .

* * *

(١) انظر : روح المعاني (٢٥ / ١٠٧) .



قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبِهِ ۖ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات : ٣٨ - ٣٩] .

وقال في هذه السورة أيضاً : ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات : ٥٢] .

سؤال

لماذا رُسمت كلمة (ساحرٌ) في الآية التاسعة والثلاثين ﴿سَاحِرٌ﴾ بلا ألفٍ ، ورُسمت في الآية الثانية والخمسين ﴿سَاحِرٌ﴾ بالألفِ ؟

الجواب

إن كلمة (ساحر) رُسمت في المصحفِ بأكثر من صورة ، فالمعرفة ب : (أل) رُسمت بالألفِ حيث وقعت ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى﴾ [طه : ٦٩] .

وهذه الصورة لا تعنينا وهي صورةٌ لم يختلف بعضها عن بعضٍ ، فلا تكون مثارَ سؤالٍ ، وأما التكررة فرُسمت من دون ألفٍ حيث وقعت ؛

أي (سحر) ، إلا في قوله تعالى في الذاريات : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ ، والسؤال إنما هو عن سبب الاختلاف في رسم هذه الكلمة هنا عن سائر الآيات ، ومنها آية الذاريات في قوله : ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ .

والجواب : إن كلمة (ساحر) الأولى إنما قيلت في موسى عليه السلام ، وهو شخص واحد .

أما الآية الثانية فهي في الأمم السابقة ، وقد قالوا في كل واحد من رسلهم : ﴿ سَاحِرٌ ﴾ ، فالآية الأولى في رسول واحد ، أما الآية الأخرى فإنها في رسل كثيرين ، فلما كثر الرسل وزادوا زيد في الرسم مناسبة للزيادة .

قد تقول : ولكنها رسمت في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَنتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [يونس : ٧٩] ، وقوله : ﴿ يَا تَوَكُّبِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٢] من دون ألف مع أنهم أكثر من واحد ، فما الفرق ؟

والجواب : إن هؤلاء في قوم مخصوصين وهم قوم فرعون ، وأما قوله تعالى : ﴿ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ... ﴾ فهو في جميع الأمم السابقة ، ولا شك أن أولئك أكثر من سحرة فرعون ، فلما كثرت الأمم وامتدت وتناولت زيد في الرسم .

وعلى أية حال فهذا من خطأ المصحف الذي لا يقاس عليه ، كما



ذكرنا أكثر من مرة ، وهذا التعليل لا نقطع بصحته ، فقد يكون من بابِ
الموافقاتِ .

وهذا ينطبق على أكثر ما نذكره فيما يتعلق برسم المصحفِ .
والله أعلمُ .





قال تعالى في سورة الطور: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الطور : ٧-٨] .

وقال في سورة المعارج : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ ﴾ [المعارج : ١-٢] .

سؤال

لماذا قال في سورة الطور : ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ فنفى بـ : (ما) ،
وقال في سورة المعارج : ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ فنفى بـ : (ليس) ؟

الجواب

إن الآية في سورة الطور مسبوقة بقسم ، وهو قوله : ﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾ [١-٨] .

وقد تلقى القسم بالجملة الاسمية المؤكدة بـ : (إن) واللام ،
فقال : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ ، ونفى دفعه بالجملة الاسمية المؤكدة أيضاً

مناسبةً لجواب القسم المؤكد ، فقال : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴾ ، فنفاها
ب : (ما) وجاء ب : (من) الاستغراقية المؤكدة .

أما في سورة المعارج فليس ثمة قسمٌ ، وإنما قال : ﴿ سَأَلَسَائِدُ بَعْدَابٍ
وَأَقَعِ ﴾ أي دعا لنفسه بالعذاب وطلبه لها ، ونفى دفعه بالجملة الفعلية ،
فقال : ﴿ لَيْسَ لَكُمْ دَافِعٌ ﴾ ، فقله : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴾ أنسب بالقسم ،
وأنسب بالجملة التي قبله .

وقد أكد وقوع العذاب في آية الطور دون آية المعارج ؛ لأن السِّياق
في الطور يدلُّ على وقوعه فعلاً ، وليس الأمر كذلك في المعارج ، فقد
قال في المعارج : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَنَّهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾
[٥ - ٧] .

فأمره بالصبر الجميل ، ثم قال : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ ، وذلك يدل
على أن في الزمن متسعاً بينهم وبينه ، ولم يقل مثل ذلك في الطور .

ثم إنه في المعارج ذكر موقف المجرم من العذاب الذي سيلحقه
يومئذٍ ، وهو من الوعيد الذي توعد به ربه ، وليس واقعاً بعدُ ، فقال :
﴿ يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصَّلَتْهُ أَلَّتِي
تُؤْتِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ نَبِّئِهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْنَى ﴿١٥﴾ نَزَاعَةً لِّلشَّوْىِ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ
أَدْبَرَ تَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ [١١ - ١٨] .

وأما في الطور فالسِّياق يبيِّن أن الأمر حاصلٌ ، وأنهم يشاهدون النار
موقوفين عليها ، مخاطبين بقوله : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾
أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا

﴿ تَجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [١٤ - ١٦] ، فوقوع العذابِ وعدمُ دفعِهِ في الطُّورِ
أكْدُ ، وهو أقربُ مما في المعارجِ ، فأكَّده دون آيةِ المعارجِ ، فناسبَ كلُّ
تعبيرٍ موضعه .

* * *



قال تعالى في سورة القمر: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ [القمر : ١٦] .

سؤال

قوله تعالى في سورة القمر: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ [١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٠] يأتي به مرة بعد ذكر العذاب كما في قصة نوح ، ومرة يأتي به قبل ذكر العذاب كما في ثمود ، ومرة يأتي به مرتين : قبل ذكر العذاب وبعد ذكر العذاب كما في عاد ، فما السبب ؟

الجواب

يأتي قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ في حالتين :
 الحالة الأولى : أن يذكر القوم ومخالفتهم رسولهم ، فيقول :
 ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ أي : فكيف عاقبناهم ؟
 فيكون السؤال بقصد بيان العذاب ، ثم يذكر عذابهم .

والحالة الأخرى : أن يذكر القوم ويذكر مخالفتهم رسولهم ، ثم

يذكر عقابهم ، فيقول : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ أليس هذا ما يستحقونه ؟

فيكون القصدُ من ذلك هو التعجيبُ والتهويلُ من عقوبة ربنا لهم ، وسوءِ عاقبتهم ، جاء في (روح المعاني) : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ : لتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى ما لا يلقى إليهم قبل ذكره ، لا لتهويله ، وتعظيمه ، وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله ، كأنه قال : كذبت عادٌ فهل سمعتم أو فاسمعوا كيف كان عذابي وإنذاري لهم ^(١) .

أما الجوابُ عن سبب مجيئه مرةً واحدةً في قوم نوح ، ومرةً واحدةً في ثمود ، ومرتين في عادٍ ، فذلك - والله أعلم - :

أن تكذيب عادٍ أعمُّ من تكذيب قوم نوح و ثمود ، فقد قال في قوم نوح : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [٩] .

فذكر أنهم كذبوا عبد الله ؛ أي : رسوله ، وهو نوح عليه السلام .

وقال في ثمود : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ ﴾ فقالوا بشرنا مِنَّا وَحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا

لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿ [٢٣ - ٢٤] وما بعدهما ، فذكر أنهم كذبوا بالندر .

وأما عادٌ فلم يذكر بماذا كذبوا ، ولا مَنْ كذبوا ، وإنما قال :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ .

فكان تكذيبهم أعمُّ ، فذكر قوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾

(١) روح المعاني (٢٧ / ٨٤) .

مرتين ، مرةً قبلَ العذابِ ، ومرةً بعدَ العذابِ ليجمعَ حالتي البيانِ
 والتهويلِ ، فعمَّ ذلكَ الحالتينِ ، وهذا أعمُّ من أن يذكرَ حالةً واحدةً
 فناسبَ العمومُ العمومَ ، والله أعلمُ .

* * *



قال تعالى في الممتحنة: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقال في الممتحنة: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الممتحنة : ٦] .

وقال في سورة الأحزاب: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

سؤال

١ - لماذا أتت الفعل في الآية الرابعة ، فقال : ﴿ كَانَتْ ﴾ ، وذكره في المواطنين الآخرين مع أن اسم (كان) في المواطنِ كُلِّها واحدٌ ، وهو (الأسوة) ؟

٢ - ولماذا قدّم في الآية الرابعة الأسوة على المؤتسى به ، وأخرها عنه في الآيتين الآخرين ؟

الجواب

١ - إن الأسوة « تطلق على الخصلة التي من حقها أن يؤتسى

بها ، ويُقتدى بها»^(١) وتُطلق أيضاً على الشخص المؤتسى به .

والراجع في الآية الرابعة أنه أريد بها الخصلة بدليل أنه ذكرها وبينها ، فقال : ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ . . . ﴾ و« لأن الاستثناء الآتي عليها أظهر»^(٢) فقال : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ وهذا ما يرجح إرادة الخصلة .

فلما كانت الأسوة ههنا بمعنى المؤنث أنثها .

أما في الآيتين الأخريين فيُراد بها الشخص المتأسى به ، وهي بمعنى المثل ، بدليل أنه ذكر الأشخاص ، ولم يذكر الخصلة ، فلما كانت الأولى بمعنى المؤنث أثت الفعل .

ولما كانت في الآيتين الأخريين بمعنى المذكر ذُكر الفعل . لهذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أنه مما حَسَّنَ التذكير أيضاً في الآية السادسة ، وآية الأحزاب كثرة الفواصل بين كان واسمها .

فقد فصلَ في الآية الرابعة بالجارِ والمجرورِ (لكم) .

وأما الموطنان الآخراين فقد فصلَ فيهما - إضافةً إلى الجارِ والمجرورِ (لكم) - بمجرورين آخرين وهما في الآية السادسة (فيهم) ، وفي آية الأحزاب ب (في رسول الله) ، فحسن التذكير من جهتين .

(١) روح المعاني (٢٨ / ٦٩) .

(٢) روح المعاني (٢٨ / ٧٠) .

٢ - وأما الجوابُ عن السؤالِ الثاني ، فإنه في الآيةِ الرابعةِ قَدَّمَ الأسوةَ ؛ لأنَّ الكلامَ يدور عليها ، وقد بيَّنها بقوله : ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُؤُا . . . ﴾ فكانتِ الخصلةُ هي محطُّ الاهتمامِ .

وأما في الآيتينِ الأخريينِ فلم يذكرِ الخصلةَ ، وإنما ذكرِ المؤتسى به فقط ، فقدَّمه على الأسوةِ ؛ لأنَّ المؤتسى به هو محطُّ الاهتمامِ .

لقد أطلقِ التأسِّي في هاتينِ الآيتينِ ليشمَل كلَّ الأمورِ الحسنَةِ ، ولذا أكَّد في هاتينِ الآيتينِ أكثرَ ما أكَّد في الآيةِ الأولى ، فقد قال في الأولى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ ﴾ ، وأما في الآيتينِ الأخريينِ ، فقد قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾ فجاء باللامِ الواقعة في جوابِ القسمِ إضافةً إلى (قد) .

ثم أبدل في الآيةِ السادسةِ ، فقال : ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ وكذلك قال في آيةِ الأحزابِ ؛ للدلالة على أهميةِ التأسِّي بهؤلاءِ المصطفين ، والله أعلمُ .



قال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۗ إِنَّهُنَّ عَلِمْنَ بِأَيْمَنِهِنَّ ۗ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

سؤال

لماذا قال : ﴿لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ بالاسمية ، وقال : ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ بالفعل ولم يجعلهما على نمط واحد ، فيقول مثلاً : (لاهن حل لهم ولا هم حل لهم) ، أو : (لاهن يحللن لهم ولا هم يحللون لهم) ؟

الجواب

من المعلوم أن الاسم يدل على الثبوت ، والفعل يدل على الحدوث والتغير ، فعبر عن المؤمنات بالاسم ؛ لأن الحكم لا يتغير بالنسبة إليهن ، ولا يجوز منهن التغير .

وعبر عن الكفار بالفعل ؛ لأنه يتغير الحكم بتغيرهم بأن يسلموا .

فالحكم في حقهن ثابتٌ أبداً ، ومن الممكن أن يتغير الحكم بالنسبة إليهم إذا غيروا دينهم إلى الإسلام .



جاء في (روح المعاني) : « ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ الجملةُ الأولى لبيان الفرقة الثابتة وتحقق زوالِ النكاحِ في الأولِ .

والثانية : لبيان امتناع ما يستأنف ويستقبل من النكاح ، ويُشعر بذلك التعبير بالاسم في الأولى والفعل في الثانية .

وقال الطَّيْبِي في وجه اختلافِ التعبيرين : إنه أسندت الصِّفَة المشبَّهة إلى ضمير المؤمنات في الجملة الأولى ؛ إعلماً بأن هذا الحكم ثابتٌ فيهن ، لا يجوز فيه الإخلالُ والتغييرُ من جانبهن .

وأسندَ الفعلَ إلى ضميرِ الكفارِ ؛ إيداناً بأن ذلك الحكم مستمرُّ الامتناعِ في الأزمنةِ المستقبلةِ ، لكنه قابلٌ للتغييرِ باستبدالِ الهدى بالضلالِ «^(١)» .



(١) روح المعاني (٢٨ / ٧٦) .



قال تعالى في سورة المرسلات: ﴿ أَنْظِلِقُوا إِلَىٰ مَا كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ ﴾ [٢٩ - ٣٠] .

سؤال

في سورة المرسلات ذكر الله عقوبة الكافرين في الآخرة ، فقال :
﴿ أَنْظِلِقُوا إِلَىٰ مَا كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ ﴾ [٢٩ - ٣٠] وما بعدها .

ثم ذكر جزاء المتقين ، فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴾ [٤١] وفوَكة
مَعَايِشْتَهُونَ ﴾ [٤١ - ٤٢] وما بعدها .

ثم عاد إلى جزاء الكافرين ، فقال : ﴿ كُلُّوْا وَتَمَنَّنُوْا قَلِيْلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُوْنَ ﴾ [٤٦ - ٤٧] وما بعدها .

فلمَ ذاك ؟ ولمَ لم يذكر جزاء الكافرين في مكانٍ واحدٍ ؟

الجواب

ليس الأمر كما توهم السائل ، وإنما جرى ذكر أحداثِ السورة
ومشاهدتها في نمطٍ معينٍ ومنهجٍ واضحٍ ، وذلك على النحو الآتي :

١ - إن المشهد الأول في السورة بعد القسم بالمرسلات ، وما بعدها إنما هو في أحداث يوم القيامة ، وهو قوله : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ﴿١٠﴾ ... ﴾ .

ثم عاد إلى تذكير الناس بإهلاك من تقدمهم ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم ليتعظوا ، فقال : ﴿ أَلَمْ نُهَبِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلُومُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ ... ﴾ .

٢ - ثم عاد إلى ذكر الجزاء في الآخرة ، فذكر جزاء المكذبين ، ثم ذكر بعده جزاء المتقين ، وهو ما يقع بعد أحداث القيامة ، والفصل بين الخلائق ، فقال في جزاء المكذبين : ﴿ أَنْظِلُّوهُ إِلَى مَا كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْظِلُّوهُ إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ ... ﴾ .

وقال في جزاء المتقين : ﴿ إِنَّ الْمَتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْقَهُ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ ... ﴾ .

ثم عاد إلى تذكير الناس في الدنيا ليتعظوا ، فقال : ﴿ كُلُوا وَتَمَنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلُومُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكَبُوا لَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلُومُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فقوله : ﴿ كُلُوا وَتَمَنَعُوا ﴾ إنما هو تهديد ووعيد للكافرين في الدنيا ، فالتمتع القليل إنما هو في الدنيا ، وأما في الآخرة فليس لهم تمتع ، لا قليل ولا كثير .



ثم قال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ وهذا إنما هو في الدنيا ،
وليس في الآخرة ، وكذلك قوله : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فمنهج السورة واضحٌ بيِّنٌ ، وهو جارٍ على حسب جريان الأحداثِ
مع التذكيرِ للاتِّعاضِ .





قال تعالى في سورة الحجر: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : ٣٠] .

سؤال

لماذا يخبر ربنا عن الملائكة بالتذكير أحياناً ، وبالتأنيث أحياناً أخرى ، فمرة يقول : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : ٣٠] بالتذكير .

ومرة أخرى يقول : ﴿ فَنادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ [آل عمران : ٣٩] بالتأنيث ؟

والجواب

إن في القرآنِ خطوطاً تعبيريةً في تذكيرِ وتأنيثِ الملائكةِ ، من ذلك :

١ - أن كلَّ أمرٍ يصدر إلى الملائكةِ يكون بصيغةِ المذكرِ ، وذلك نحو قوله : ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [البقرة : ٣٤] ، وقوله : ﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ﴾ [البقرة : ٣١] ، فلم يأمرهم بصيغةِ المؤنثِ ، فلم يقل مثلاً :

(اسجدي) ونحوه ، وذلك للتنصيص على أن الملائكة ليسوا إناثاً ، كما كان يعتقد أهل الجاهلية الذين حكى الله عنهم ذلك بقوله : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف : ١٩] .

وغير ذلك من الآيات ، فإن الضمير (الواو) خاصٌ بالعقلاء الذكور ، بخلاف ما لو أمر بالتأنيث نحو : (اسجدي) فإنه يكون للأنثى العاقلة وغيرها ، ولجماعة غير العاقل ذكوراً وإناثاً ، وذلك نحو : ﴿ يَجِبَالٍ أَوْيٍ مَعَهُمْ وَالطَّيْرِ ﴾ [سبأ : ١٠] ، وقوله : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ [النحل : ٦٨] وهو من باب تصحيح المعتقد الباطل .

٢ - كل فعل يقع بعد ذكر الملائكة يكون بصيغة المذكر ، وذلك نحو قوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء : ١٦٦] ، ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد : ٢٣] ، ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى : ٥] ، ﴿ قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ [الإسراء : ٩٥] .

فلم يقل : (والملائكة تشهد) ، ولا : (والملائكة تسبح بحمد ربها) ولا نحو ذلك .

٣ - كل وصف لهم بالاسم يكون بصورة المذكر ، وذلك نحو قوله : ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء : ١٧٢] ، ﴿ فَفَعُولُهُمْ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩] ، ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، ﴿ بِخَمْسَةِ ءَأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٥] ، فلم يقل مرةً نحو : (الملائكة المقربة) ، أو (من الملائكة مسومة) .

٤ - كلُّ فعلٍ عبادةٍ يكون بلفظِ التذكيرِ ؛ لأن ذلك أكملُ ، وذلك نحو : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : ٣٠] ، ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم : ٦] .

٥ - إذا كان ثمة أمرٌ أشد من آخر ، كأن يكون موقفا عذابٍ أحدهما أشدُّ من الآخرِ ، جيء بما هو أشدُّ بالتذكيرِ للدلالة على قوة الأمرِ وشدته ، وذلك نحو قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَاهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

وقوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَاهُمْ ﴾ [محمد : ٢٧] .

فجاء بآية الأنفالِ بالتذكيرِ ﴿ يَتَوَفَّى ﴾ ، وبآية محمدٍ ﷺ بالتأنيثِ ﴿ تَوَفَّتْهُمُ ﴾ وذلك أن آية الأنفالِ في سياقٍ وقعة بدرٍ .

ثم إنه قال : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية محمدٍ ﷺ كما أنها ليست في سياقٍ حربٍ ، فجاء بما هو أشدُّ بصيغة المذكرِ .

٦ - في موقفِ البُشرى يأتي بصيغة المؤنثِ ، فلم تأتِ البُشرى بصيغة التذكيرِ ، وذلك نحو : ﴿ فَنادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى ﴾ [٣٩] ، ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] .

وانظر كيف جاء في موقفِ الشدةِ بالتذكيرِ في قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَشَقُّقُ

السَّمَاءِ بِالْغَمَمِ وَنَزَلَ الْمَلَكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿ [الفرقان : ٢٥ - ٢٦] .

وفي موقفِ البُشرى بالتَّأنيثِ ، في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِي قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

فقال في الأولى : ﴿ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ، وقال في آيةِ البُشرى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ .

قد تقول : لكنَّ الملائكةَ بشرت سيدنا إبراهيم ، وكان الفعلُ الذي أُسند إليهم بصيغةِ التذكير ، قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] .

فنقول : إنه لم يرد ذكرُ للملائكةِ في هذهِ القصةِ ، بل ورد ذكر الضَّيْفِ ، قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [٢٤] . فأسند القولُ إلى الضَّيْفِ ، ولم يُسندهُ إلى لفظِ الملائكةِ .



قال تعالى في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ﴾ [البقرة: ١٨٠] .

سؤال

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ﴾ [البقرة: ١٨٠] . بالفعل ﴿حَضَرَ﴾ .

وقال في موطنٍ آخر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] . بالفعل ﴿جَاءَ﴾ ، فما الفرقُ بينهما؟

الجواب

إن الحضور نقيضُ المغيبِ والغيبية ، وهو بمعنى الشُّهود ، وهو يختلف عن المجيء ، وإيضاحُ ذلك أنك تقول : (كنت حاضراً إذ كلمه أبوك) فهذا ليس معناه أنني كنت قادماً حين كلمه ، بل معناه : كنت موجوداً حين كلمه أبوك .

وتقول : (كنت حاضراً مجلسهم) أي : شاهداً مجلسهم ، لست غائباً ، وليس معناه : كنت قادماً إلى مجلسهم .

ونقول : (الله الحاضر في كل مكان) أي الموجود في كل مكان [بعلمه] ، وليس معناه : (الله القادم في كل مكان) أو إلى كل مكان .

ولذا لا يصح أحياناً وضع إحدى الكلمتين مكان الأخرى .

ففي قوله تعالى في السد الذي صنعه ذو القرنين مثلاً : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ [الكهف : ٩٨] لا يصح أن يقال للمعنى نفسه : (فإذا حضر وعد ربي جعله دكاء) فإن الوعد - وهو القيامة أو غيرها - ليس موجوداً في ذلك الوقت بل سيأتي .

وفي قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ [هود : ٤٠] لا يصح أن يقال للمعنى نفسه : (حتى إذا حضر أمرنا) فكأنه كان موجوداً في مكان آخر ، ثم حضر ، بل هو سيأتي في حينه ، فإن الحضور يُقال لما هو موجود .

وأما المجيء فيحتمل الأمرين : المجيء بعد أن لم يكن موجوداً أصلاً ، أو كان موجوداً في مكان ، ثم قدم إلى مكان آخر .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : ١٠٤] .

ولا يصح أن يقال للمعنى نفسه : (فإذا حضر وعد الآخرة) .

ونحوه كثير ، وذلك نحو قوله : ﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾

[المؤمنون : ٤٤] ، وقوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى

فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾

[المائدة : ١٩] ، فذلك ونحوه لا يصح إبدال : (حضر) فيه ب : (جاء) .

ونعود إلى الاستعمال القرآني لهذين الفعلين في نحو : ﴿ حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ﴾ و : ﴿ جَاءَ أَحَدَكُمْ ﴾ .

فالقرآن يستعمل حضور الموت مع الوصايا والأحكام ، أما مجيء الموت فيستعمله لذكر ما يتعلق بالموت ، أو ما يتعلق بالناس وأحوالهم فيه ، أو فيه وفيما بعده .

وإيضاح ذلك أنه قال في حضور الموت : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

فلم يذكر شيئاً يتعلق بالموت ، وإنما هو ذكر لوصية يعقوب لبنيه عند حضور الوفاة .

وقال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٨٠ - ١٨١] .

وقال : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَائِنِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [المائدة : ١٠٦] .

وهذه كما ترى في الوصايا ، وليست في ذكر ما يتعلق بالموت ، فكان الموت يكون شاهداً مع من يشهد .

وقال : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ

مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴿١٨﴾ [النساء : ١٧ - ١٨] .

وهذا في حكم التوبة وأوانها ، وأنها ليست عند حضور الموت ، فليس في هذه الآيات شيء يتعلق بالموت ، أو بحالة المتوفى فيه .

وقال في مجيء الموت : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴾ ﴿١١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿١٢﴾ [الأنعام : ٦١ - ٦٢] .

فذكر أمراً يتعلّق بالموت وحالتهم فيه ، وأنهم يُرَدُّون إلى ربهم بعد ذلك .

وقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢١﴾ ... ﴿٢٢﴾ [المؤمنون : ٩٩ - ١٠١] . وما بعدها .

فذكر أنه إذا جاء أحدهم الموتُ سأل ربه أن يُعيده لعله يعمل صالحاً ، فقد ذكر شأن المتوفى من هؤلاء ، ثم ذكر بعده أموراً تتعلّق بالقيامة .

وقال : ﴿ وَجَاءَت سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَت كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ [ق : ١٩ - ٢١] .

فقد ذكر أمراً يتعلّق بالموتِ ، وهو أن الميتَ كان يهرب منه ، ثم ذكر ما بعد الموتِ من أحوالِ القيامةِ .

فأتّضح أن مجيءَ الموتِ يستعمله القرآنُ لما يتعلّق بالموتِ ، أو بحالِ الميتِ فيه ، أو فيه وفيما بعده .

* * *



قال تعالى في سورة سبأ: قال تعالى في سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] .

سؤال

يُقال : إن المنسأة هي العصا ، فلماذا استعمل هنا المنسأة دون العصا ، في حين استعمل العصا مع موسى ، قال تعالى على لسان موسى : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ [طه : ١٨] ؟

الجواب

المنسأة هي العصا العظيمة ، التي تكون مع الراعي يزرع بها البعير ؛ ليزداد سيرا ، واشتقاقها من النَّسءِ ، وفعله : نسأ .

ومن معاني النسء : التأخير في الوقت ، ومنه النسيئة وهو : البيع بالتأخير . و : (نسأ الله في أجله) أي أخره وزاد فيه .

والنساء أيضاً : زجرُ الناقَةِ ليزداد سيرها ، ونسأها : دفعها في السير
وساقها^(١) .

واستعمالها مع سليمان هو المناسب ؛ لأنها كأنها نسأت في حكمه
وأجله ، وكانت كأنها تزجرُ الجنَّ وتسوقهم إلى العملِ ، فهي أنسب من
العصا ، فقد أفادت معنيي النَّسَاءِ : الزيادة في الأجلِ ، والزجرِ للسوقِ ،
يدلُّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا
لِئْتُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ .

فالمنسأة هي التي كانت تسوقهم إلى العمل ؛ لأنهم يظنون أن
سليمان عليه السلام لا يزال حياً .

وأما استعمال العصا مع موسى فهو الأنسب ، فإن الغنم لا تحتاج
إلى عصا عظيمة لسوقها .

كما أنه استعمالها في مقام الرأفة بالحيوان والرحمة به ، فقد قال :
﴿ أَتَوَكَّرُوا عَلَيْهَا وَأَهْشُوا عَلَيْهَا غَنَمِي ﴾ أي : يخبط بها أوراق الشجر ؛ لتأكله
الماشية فلا يناسب استعمال المنسأة ، فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه .

* * *

(١) انظر : لسان العرب (نساء) .



قال تعالى في سورة البقرة: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٦]
وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البقرة: ١٩٨].

سؤال

ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٦]
وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البقرة: ١٩٨]؟

الجواب: إن قوله: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ جملة اسمية، وقوله:
﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ جملة فعلية.

والجملة الاسمية أقوى وأثبت من الفعلية.

ثم إن (لا) تفيد تأكيد النفي، وذلك أنها متضمنة معنى: (من)
الاستغرافية، يقول النحاة: وهي نظير: (إن) في تأكيد الإيجاب^(١)،
وهي أكد من (ليس).

(١) انظر: ابن الناظم (٧٤)، الهمع (١ / ١٤٤)، التصريح (١ / ٢٢٥)،
جواهر الأدب (١٢٥).

ومعنى هذا أن قوله : ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أكد وأقوى وأثبت من قوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ .

ويوضح ذلك الاستعمال القرآني للعبارتين ، فإنه يستعمل : ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيما هو أهم من المواطن التي تستعمل فيها : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فهو يستعملها في أمور العبادات ، وفي تنظيم شؤون الأسرة ، وفي الأمور المهمة على العموم .

وأما قوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فإنه يستعمله فيما هو دون ذلك من أمور الحياة ، وما هو أقل أهمية على العموم .

قال تعالى : ﴿فَمَنْ حَاجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة : ١٥٨] ، وهذا أمر يتعلق بالعبادة .

وقال : ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، وهذا يتعلق بتنظيم الأسرة ، وحقوق كل من الزوجين .

وقال : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ٢٣٤] .

وقال : ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ نَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ٢٣٦] ، وهي كما ترى في شؤون تنظيم الأسرة ، وفي الحقوق والواجبات .

وأما قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ فيستعمله فيما هو أقلُّ شأنًا من أمورِ الحياة كما ذكرت .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ [المائدة : ٩٣] .

وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٩] .

وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ [النور : ٦١] .

وقال : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُمُوهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

فأنت ترى أنه استعملها فيما هو أقلُّ أهمية مما قبلها .

قد تقول : ولكنه قال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة : ١٩٨] ، وهذا يتعلق بأمورِ العبادات .

فنقول : كلا ، وإنما هو يتعلق بالتجارة في موسمِ الحجِّ ، فإنه قال : إنه لا مانع من التجارة وابتغاء الرِّزقِ في الحجِّ .

وبوضَّح ذلك استعمالُ كلِّ من التعبيرين في آيتين متتابعتين ، وهما قوله : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [النساء : ١٠١] .

وقوله في الآية بعدها : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء : ١٠٢] .

فقال في الآية الأولى : ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ، وقال بعدها : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ .

ذلك أن الآية الأولى في السير في الأرضٍ للتجارةٍ أو غيرها ، فقال : ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ .

أما الآية الثانية ففي الجهاد ، يدلُّ على ذلك قوله : ﴿أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ ، وقوله : ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ ، فقال : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فدلَّ ذلك على ما ذكرناه ، والله أعلم .



سؤال :

ما الفرق بين الكره والكروه ؟

الجواب

قيل : هما واحدٌ ، وقيل : الكره بالضمّ اسمٌ مفعولٌ ؛ أي مكروهٌ كالخبز بمعنى المخبوز ، والكره بالفتح المصدر^(١) .

وقيل : « الكره - بفتح الكاف - المشقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يُحمل عليه بإكراه .

والكره - بضم الكاف - ما يناله من ذاته وهو يعافه^(٢) .

وجاء في (البحر المحيط) : « وقيل : الكره بالضمّ ما كرهه الإنسان ، والكره بالفتح ما أكره عليه^(٣) .

وعلى هذا المعنى جرى استعمالُ القرآن .

(١) انظر : البحر المحيط (٢ / ٣٦٢ - ٣٧٩) .

(٢) المفردات في غريب القرآن (كره) .

(٣) البحر المحيط (٢ / ٣٦٢) .

فإنه يستعمل الكره - بفتح الكاف - لما ينال الإنسان من الخارج من مشقة ، ولذا يقابله بالطَّوع .

قال تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسَلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

وقال : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ ﴾ [التوبة : ٥٣] .

وقال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد : ١٥] .

وقال : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنثِيًا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ [فصلت : ١١] .

ولم يقابل الطَّوع بالكره بضم الكاف .

وقال : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾

[النساء : ١٩] ، أي : بالإكراه .

وكلُّ ذلك يدلُّ على ما يناله من المشاقِّ من الخارج ، وما يُكره عليه .

في حين قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾

[البقرة : ٢١٦] ، أي : إن كره القتال أمرٌ يعودُ إلى الطبع ، فإن القتالَ مكروهٌ للإنسانِ .

وقال : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِالْطَّيِّبَاتِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا ﴾

[الأحقاف : ١٥] .

والحملُ والوضعُ مشقتان تنالان المرأة ، وهما مكروهان لها ؛ لما

فيهما من آلامِ الحملِ والوضعِ والمشقةِ فيهما .



سؤال

ما الفرق بين النبأ والخبر؟

الجواب

النبأ : أهمُّ من الخبرِ وأعظمُ ، جاء في (المفرداتِ) للزَّعْبِ :
« النبأ : خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ ، يحصلُ به علمٌ ، أو غلبةٌ ظنٌّ » (١) .

وكذلك استعملها القرآن ، قال تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١) عَنِ النَّبِيِّ
الْعَظِيمِ ﴿ [النبأ : ١ - ٢] .

وقال : ﴿ قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٍ ﴾ (١٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿ [صر : ٦٧ - ٦٨] .

ولم يستعمل (الخبر) بصورة الإفراد إلا في قصة موسى في قوله :
﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِئْتِجِءَانَا نَارًا سَائِغَةً مِّنْهَا نَجِّيَنَّكُمْ ﴾ [النمل : ٧] ، وقوله :
﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [القصص : ٢٩] .
ولا شك أن الخبر الذي بغاه موسى لا يرقى إلى أهمية النبأ العظيم .

(١) المفردات (نبأ) .

ومن الملاحظ أن القرآن لم يستعمل لأخبار الماضين من الرُّسل ،
أو غيرهم إلا الأنبياء .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

وقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾
[إبراهيم : ٩] .

وقال : ﴿ وَلَعَلَّمَنَّا نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٨] .

وقال : ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾
[هود : ١٢٠] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر : ٤] .

قد تقول : ولكنه استعمل الأخبار في أمر يدل على عظيم
أهميتها ، فقد قال ربنا : ﴿ وَلَنَبَلِّغَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ
وَنَبَلِّغُوا أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] .

فنقول : إن هذا يدل على عظيم البلاء ، فإنه إذا بلا الأخبار مع أنها
أيسر من الأنبياء فهو سيلو الأنبياء من باب أولى ، فإنه إذا بلا اليسير فإنه
سيلو العظيم من باب أولى ، ولو قال : (ونبلو أنبياءكم) لم يدل على أنه
يلو الأخبار ، بل هو ستركها ؛ لأنها أهون ، فلما ذكر أنه يبلو الهين دل
على أنه يبلو العظيم ولا شك .

وقد تقول : ولكنه ذكر الأخبار في الأمور العظيمة ، وهي
الآخرة ، فقد قال :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ [الزلزلة : ١ - ٥] .

فبقول : هذا يدلُّ على عظم ما سيكون في اليوم الآخر ، فهذه هي الأخبار ، فما بالك بالأنباء ؟ !

فإنه ستحدث أمورٌ أكبرٌ وأعظمٌ من الزلزلة ، من مثل قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكُوكُوبُ أُنثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾ [الانفطار : ١ - ٣] .

ومن مثل قوله : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ [الواقعة : ٥ - ٦] .

وقوله : ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ [الرحمن : ٣٧] ، وغير ذلك من الأمور العظيمة .

وهذا تحذيرٌ عظيمٌ ، فإذا كانت هذه هي الأخبار ، فما بالك بالأنباء ؟



سؤال

العدد في القرآن الكريم هل يُراد به حقيقة المذكور أو يُراد به التكثير؟

الجواب

إن العدد مذكور في القرآن في أكثر من سياقٍ ومقام :

١ - فقد ذكر في الأحكام ، وذلك نحو قوله : ﴿ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

وقوله : ﴿ فَكَفَّرْتَهُمْ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ ﴾ [المائدة : ٨٩] ، وهذا يُراد به العدد المذكور حتماً .

٢ - وقد يُذكر في الإخبار عن أمورٍ أو حوادثٍ مختلفةٍ ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٧] .

وقوله : ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

وقوله : ﴿ وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ﴾ [الأعراف : ١٥٥] ،

وهذه الأعداد يُراد بها حقيقة ما ذكر أيضاً .

٣ - هناك أعدادٌ اختلفوا فيها ، أتراد حقيقتها أم يُراد بها التّكثيرُ ،
 وذلك نحو قوله : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ
 يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] .

والذي نرجّحه أنه يُراد به حقيقتها ، والدليلُ على ذلك ما جاء في
 الخبرِ ، أن الرّسول ﷺ قال : « سمعت ربي رخص لي فلاستغفرن لهم
 سبعين وسبعين وسبعين ، فلعل الله يغفر لهم » . حتى نزل قوله :
 ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾
 [المنافقون : ٦]^(١) .

* * *

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٢ / ٣٧٦) .



سؤال

لماذا لم تتكرر قصة يوسفَ في القرآنِ كما تكررتُ قصصُ الأنبياءِ الآخرينَ ؟

الجوابُ

نقول أولاً : ليست قصةُ يوسفَ هي الوحيدةُ التي لم تتكرر في القرآنِ ، وإنما هناك قصصُ أخرى لم تتكرر ؛ منها قصةُ سليمانَ والهدد ، وقصةُ ذي القرنين ، وقصةُ موسى والخضر ، وقصةُ أصحابِ الكهفِ وغيرها .

أما الجوابُ عن قصةِ يوسفَ ، فإن هذه القصةَ ليس فيها تعليماتٌ ، ولا أحكامٌ ، ولا دعوةُ قومٍ من الأقسامِ إلى ما دعا إليه الأنبياءُ الآخرون ، وليس ليوسفَ ولا لأبيه مع قومِهِ شأنٌ من شؤونِ الدعوةِ .

وبذا هي تختلفُ عن رسالاتِ الأنبياءِ الآخرين ، من دعوةِ أقوامِهِم إلى التوحيدِ وتركِ عبادةِ الأصنامِ ، والنهي عن الشركِ والعقائدِ الباطلةِ ، ونهيهم عن أعمالٍ كانوا يرتكبونها من مثلِ التطفيفِ بالموازينِ والكيلِ ،

وإتيانِ الذكرانِ ، وغيرها من الفواحشِ ، ودعوتهم إلى صالحِ العملِ ، وهي أَسْسٌ عامةٌ لجميعِ الأقسامِ والمجتمعاتِ على مرِّ الزمانِ .

أما قصةُ يوسفَ - على ما فيها من عبرٍ - فهي تحكي قصةَ شأنٍ عائليٍّ ، وليست رسالةً إلى مجتمعٍ أو قومٍ من الأقسامِ .

وأما ما قاله يوسفُ إلى السَّجينينِ معه : ﴿ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] ، فهذا جاء عرضاً استغله يوسفُ للدعوةِ إلى الله ، وهو بصددِ تعبيرِ الرؤيا ، ولم يذكرِ القرآنُ لنا أن يوسفَ كان مُكَلِّفًا بتبليغِ رسالةٍ ما إلى قومِهِ أو إلى غيرهم .

وحتى لو كان يوسفُ رسولاً من رسلِ الله ، كما يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ [غافر : ٣٤] ، لكنه لم تُذكر هذه الرِّسالةُ ، ولا بما أُرسِلَ .

فاختلف الأمرُ عن بقيةِ قصصِ الأنبياءِ ؛ الذين تَكَرَّرَ الحديثُ عنهم .



سؤال

ما الفرق بين فتح الله عليك وفتح الله لك

نسمع أحياناً داعياً يدعو لصاحبه بقوله : (فتح الله عليك) ،
ويقال : إن هذا الدعاء غير مناسب ؛ لأن (فتح الله عليك) لا يقال في
الخير ، وإنما يقال في الشر فقط ، والصواب أن يقال : (فتح الله لك)
فما حقيقة الأمر ؟

الجواب

إن الاعتراض غير وارد ، وإنما يصح أن يقال : (فتح الله عليك)
في الخير والشر ، بحسب ما يُبين الداعي أو المخبر أو ينويه .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

وقال على لسان بعض أهل الكتاب : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ
رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٦] .

وهذا في الخير كما هو واضح .

وقد يُستعمل في العقوباتِ والشرِّ ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٧] .

* * *



أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com



فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الاية	رقم الصفحة
المقدمة	٥
١ - من سورة البقرة	٣ ، ٢	٧
٢ - من سورة البقرة	٢٤ ، ٢٣	٩
٣ - من سورة البقرة	٤٩	١٤
٤ - من سورة البقرة	٥١	١٦
٥ - من سورة البقرة	٨٦	١٨
٦ - من سورة البقرة	١١٤	٢٠
٧ - من سورة البقرة	١٢٠	٢٢
٨ - من سورة البقرة	١٢٠	٢٤
٩ - من سورة البقرة	١٤٣	٢٩
١٠ - من سورة البقرة	١٦٠ ، ١٥٩	٣٥
١١ - من سورة البقرة	١٧٢	٣٧

٣٩ ٢٣٣	١٢ - من سورة البقرة
٤١ ٢٣٩ ، ٢٣٨	١٣ - من سورة البقرة
٤٣ ٢٤٩	١٤ - من سورة البقرة
٤٥ ٤٧ ، ٤٠	١٥ - من سورة آل عمران
٤٨ ٥٧ ، ٥٦	١٦ - من سورة آل عمران
٥٠ ٦٤	١٧ - من سورة آل عمران
٥٣ ٩٧	١٨ - من سورة آل عمران
٥٥ ١٠٧ ، ١٠٦	١٩ - من سورة آل عمران
٥٩ ١٦٧	٢٠ - من سورة آل عمران
٦٢ ٢٨ ، ٢٦	٢١ - من سورة النساء
٦٨ ٩٢	٢٢ - من سورة النساء
٧٠ ١٦٢	٢٣ - من سورة النساء
٧٣ ١٦٤ ، ١٦٣	٢٤ - من سورة النساء
٧٦ ٢	٢٥ - من سورة المائدة
٧٨ ٦	٢٦ - من سورة المائدة
٨١ ٦٨ ، ٢٦	٢٧ - من سورة المائدة
٨٣ ٢٧	٢٨ - من سورة المائدة
٨٥ ١٧	٢٩ - من سورة الأنعام
٨٧ ٥١	٣٠ - من سورة الأنعام
٩٢ ٨٦ ، ٨٣	٣١ - من سورة الأنعام
٩٧ ٨٦ ، ٨٣	٣٢ - من سورة الأنعام

١٠٠ ٩٠	٣٣ - من سورة الأنعام
١٠٢ ١٣٠	٣٤ - من سورة الأنعام
١٠٦ ١٨	٣٥ - من سورة الأعراف
١٠٩ ٥٦ ، ٥٥	٣٦ - من سورة الأعراف
١١١ ٦٤	٣٧ - من سورة الأعراف
١١٥ ١٢٣	٣٨ - من سورة الأعراف
١١٧ ١٤٥ ، ١٤٤	٣٩ - من سورة الأعراف
١٢٠ ٥٤ ، ٥٢	٤٠ - من سورة الأنفال
١٢٥ ١٩	٤١ - من سورة يونس
١٢٧ ٤٦	٤٢ - من سورة يونس
١٣٠ ١٠٤	٤٣ - من سورة يونس
١٣٢ ٢٠	٤٤ - من سورة هود
١٣٤ ٤٠	٤٥ - من سورة هود
١٣٨ ٦٠	٤٦ - من سورة هود
١٤١ ٦٧	٤٧ - من سورة هود
١٤٧ ٢	٤٨ - من سورة يوسف
١٥١ ١٥	٤٩ - من سورة الرعد
١٥٦ ٢	٥٠ - من سورة الحجر
١٥٨ ٤٦	٥١ - من سورة الحجر
١٦٠ ٦١	٥٢ - من سورة التّحل
١٦٢ ٦٤	٥٣ - من سورة التّحل

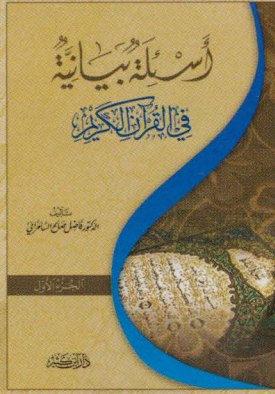
١٦٤ ٦٧ ، ٦٦	٥٤ - من سورة النَّحْلِ
١٦٦ ٧٠	٥٥ - من سورة النَّحْلِ
١٧٠ ٧٩	٥٦ - من سورة النَّحْلِ
١٧٤ ٨١	٥٧ - من سورة النَّحْلِ
١٧٦ ٩٨ ، ٤٩	٥٨ - من سورة الإسراء
١٧٩ ٤٥	٥٩ - من سورة مريمَ
١٨١ ٦٣ ، ٦١	٦٠ - من سورة مريمَ
١٨٤ ٤٠ ، ٣٨	٦١ - من سورة طه
١٨٨ ٧٧	٦٢ - من سورة طه
١٩١ ١٣١ ، ١٣٠	٦٣ - من سورة طه
١٩٥ ٢٧	٦٤ - من سورة الحجِّ
١٩٧ ٣٥	٦٥ - من سورة النورِ
٢٠٠ ٤٩ ، ٤٨	٦٦ - من سورة الأنبياءِ
٢٠٣ ١٥	٦٧ - من سورة العنكبوتِ
٢١٠ ٢٠	٦٨ - من سورة العنكبوتِ
٢١٢ ٢٢	٦٩ - من سورة العنكبوتِ
٢١٧ ٤٠ ، ٣٨	٧٠ - من سورة العنكبوتِ
٢٢٠ ٢٧ ، ٢٦	٧١ - من سورة الأحزابِ
٢٢٢ ٧٢	٧٢ - من سورة الأحزابِ
٢٢٤ ٣٦	٧٣ - من سورة سبأ
٢٢٨ ٢٩	٧٤ - من سورة فاطرِ

٢٣٠ ٥١	٧٥ - من سورة يَسَّ
٢٣٣ ١٠١	٧٦ - من سورة الصَّافَاتِ
٢٣٦ ١٤	٧٧ - من سورة صَّ
٢٤٣ ١٧	٧٨ - من سورة صَّ
٢٤٥ ١٨ ، ١٧	٧٩ - من سورة الزمِرِ
٢٤٧ ١٧ ، ١٥	٨٠ - من سورة غَافِرٍ
٢٤٩ ٣٠	٨١ - من سورة الشورى
٢٥١ ٥٠ ، ٤٩	٨٢ - من سورة الشورى
٢٥٥ ٢٢	٨٣ - من سورة الزخرفِ
٢٦٠ ٢٤	٨٤ - من سورة الزخرفِ
٢٦٢ ٨٤	٨٥ - من سورة الزخرفِ
٢٦٤ ٣٩ ، ٣٨	٨٦ - من سورة الذارياتِ
٢٦٧ ٨ ، ٧	٨٧ - من سورة الطورِ
٢٧٠ ٣٠ ، ٢١ ، ١٨ ، ١٦	٨٨ - من سورة القمرِ
٢٧٣ ٤	٨٩ - من سورة الممتحنةِ
٢٧٦ ١٠	٩٠ - من سورة الممتحنةِ
٢٧٨ ٢٩ وما بعدها	٩١ - من سورة المرسلاتِ
٢٨١	٩٢ - الإخبار عن الملائكة بالتذكير والتأنيثِ
		٩٣ - الفرق بين ﴿ حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ و ﴿ جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾
٢٨٥	﴿ الْمَوْتُ ﴾
٢٩٠	٩٤ - الفرق بين المنسأة والعصا

- ٩٥ - الفرق بين ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ و ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾
 ٢٩٢ ﴿جُنَاحٌ﴾
- ٩٦ - الفرق بين الكُره (بفتح الكاف) والكُره (بضمّ
 ٢٩٦ الكافِ)
- ٩٧ - الفرق بين النبأ والخبر
 ٢٩٨
- ٩٨ - سؤال عن حقيقة العدد في القرآن الكريم
 ٣٠١
- ٩٩ - لماذا لم تتكرر قصة يوسف في القرآن الكريم ؟
 ٣٠٣
- ١٠٠ - سؤال في (فتح الله لك) و : (فتح الله عليك)
 ٣٠٥
- فهرسُ الموضوعات
 ٣٠٧

* * *





أسئلة وإجابات حول الأسلوب البياني في القرآن الكريم، مرتبة حسب تسلسل الموضوعات في المصحف الشريف. ويجد القارئ لفتات عميقة، ونظرات صائبة، تدل على حسن التفهم، والربط بين الآيات، تأكيداً لإعجاز القرآن، وأنه موحى من لدن حكيم عليم. واعتمد المؤلف على المصادر الموثوقة المعتبرة لدى العلماء، من التفاسير، والمعاجم، وكتب الغريب، وبعض المراجع الحديثة ذات الصلة بموضوع هذا الكتاب، وهي بمجموعها تزيد على الثلاثين مصنفاً. وأسلوب السؤال والجواب يثير الفكر، ويحرض العقل على التأمل والتدبر، ويساعد على الحفظ والاستظهار، واستحضار الجواب عند المذاكرة في نصوص التنزيل.

ISBN 978-614-415-040-5



9 786144 150405



www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com